يتورع أنْ يأخذ من محبرةِ أحدنَا شيئا . وحكى ابنُ عقيل فى (باب الغصب) من « الفصول » عن القاضى أنه قال : روى عن أحمد أنه مَنَع الكَتْبَ من محبرة غيره بغير إذنه . وفى رواية ، قال لمن استأذنه : هذا من الورع المظلم ، فحملنا الأول على كَتْب يطول ، والثانى على غَمْسِه قلماً لكَتْبِ كلمة ، أو فى حق من ينبسط إليه ويأذن له حُكْماً وعُرْفًا . انتهى كلامه .

والأوْلى أن يقال يحمل الأول على كَتْب يطول ، والثانى على كتب قليل ؛ لأنه يُتسامح به عادة وعرفاً ، أو يحمل الأول على مَنْ يغلبُ على ظنه أنه لا يطيبُ قلبه ولا يأذنُ فيه ، ويحمل الثانى على مَنْ يَطيبُ به ويأذن فيه .

فصل فى الكتابة والكتب والكتاب وأدواتهم الكتابية

قال الخلال:(التوقى ألا يُتَرَّبَ الكتابُ إلا من المباحات) ثم روى عن المروذى أنَّ أبا عبد اللّه كان يجيء معه بشيء ولا يأخذ من تراب المسجد .

قال المروذى : سمعت عبد الصمد بن مقاتل ، سمعت أبى يقول : رأيتهم يكتبون الكتابَ فى دورِ السبيل ، فإذا أرادوا أنْ يختموه أرسلوا إلى البحر فأخذوا الطين .

وذكر بعض الشافعية فى كتاب « فاتحة العلم » ما يدلُّ على أنَّ هذا لا يحرم .

وعن جابر مرفوعاً : « تربُّوا صُحُفَكم أنجح لها ، فإنَّ التراب مبارك » (١) .

وعن زيد بن ثابت مرفوعاً : « ضَعَ القلمَ على أذنك فإنه أذكر للمُمْلى » (٢) رواهما الترمذى وضعفهما ، وروى ابن ماجه الأول .

قال ابن عبد البر : وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « تَرَبُّوا الكتبَ وسجوها من أسفلها، فإنه أنجحُ للحاجة » (٣) . وذكر أيضاً الخبر المشهور عن النبى ﷺ أنه قال: « نحنُ أُمةٌ أُمّيةٌ لا نكتبُ ولا نَحسب »(٤).

وروى عنه ، أنه قال : « من أشراطِ الساعة أن يُرْفَعَ العِلْمُ ، ويفيضَ المالُ ، ويكثر التجار، ويظهر القلم » يعنى الكتابة ، كذا ذكره ابن عبد البر ، والصحيح المشهور : « يُرفَعُ العِلْمُ ويَفيضُ المال » (٥) حسب .

---

(١) الترمذى فى الاستئذان ، ب ما جاء فى تتريب الكتاب (٢٧١٣) ، وابن ماجه فى الأدب ، ب تتريب الكتاب (٣٧٧٤) .

(٢) الترمذى فى الاستئذان ، ب ٢١ (٢٧١٤) .

(٣) كنز العمال (٢٩٣٠٩) عن ابن عباس ، بلفظ : « تربوا الكتاب وسجوه من أسفله فإنه أنجح للحاجة » .

(٤) أحمد ٢/ ١٢٢ عن ابن عمر .

(٥) البخارى فى الاستسقاء ، ب ما قيل فى الزلازل والآيات (١٠٣٦) ، ومسلم فى الزكاة ، ب الترغيب فى الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها (١٥٧/ ٦١) ، كلاهما بلفظ مقارب عن أبى هريرة .

قال الحسن البصرى : لقد أتى علينا زمان ، وإنما يُقال : تاجرُ بنى فلان ، وكاتبُ بنى فلان ، ما يكونُ فى الحى إلا التاجر الواحد والكاتب الواحد . وقال الحسن أيضاً : لقد كان الرجل يأتى الحى العظيم فما يجد به كاتباً .

وفى الحديث المرفوع أيضاً : « فُشُوُّ القلم وفشو التجارة من أشراطِ الساعة » (١) يعنى بقوله « فشو القلم »: ظهور الكتابة وكثرة الكتاب .

وعن بعض المفسرين فى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام : ﴿**اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف : ٥٥] قال : كاتبٌ حاسبٌ .

وقد كتب لرسول اللّه ﷺ جماعة منهم أبى بن كعب وزيد بن ثابت وعلى وعثمان وحنظلة الأسدى ومعاوية وعبد اللّه بن الأرقم ، وكان كاتبه المواظب على الرسائل والأجوبة وهو الذى كتب الوحى كله لرسول اللّه ﷺ ، وأمره رسولُ اللّه ﷺ أنْ يتعلمَ كتابَ السريانية ليجيبَ عنه مَنْ كتب إليه بها ، فتعلمها فى ثمانية عشر يوماً .

وقال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لكاتبه عبيد اللّه بن أبى رافع : إذا كتبتَ فألقِ دواتك ، وأطلْ سِنَّ قلمك ، وفَرِّج السطور ، وقارب بين الحروف . وقالت العرب : القلمُ أحدُ اللسانين . وقالوا : الخَطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الحَقَّ وضوحاً .

وقال المأمون : الخط لسان اليد ، وهو أفضل أجزاء اليد . وأمر أبوجعفر المنصور بسجن طائفةٍ من الكتاب عتب عليهم فكتب إليه بعضهم من طريق السجن :

أطال اللّهُ عُمْرَكَ فى صلاح ... وعِزٍّ يا أميرَ المؤمنينا
بعفوِكَ نستجير فإنْ تُجِرْنا ... فإنَّك رحمةٌ للعالمينا
ونحن الكاتبونَ وقد أسأْنا ... فَهَبْنَا للكِرامِ الكاتبينا

قال : فعفا عنهم وأمر بتخليتهم . واسم الكُتاب بالفارسية ديوان ، أى شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم ، فسمى الديوانُ باسمهم ، كذا ذكره ابن عبد البر .

وقال أبو جعفر النحاس ــ واسمه أحمد بن محمد ، توفى فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة قال : معنى الديوان : الأصلُ الذى يرجع إليه ، ويعمل بما فيه ، كما قال ابن عباس : إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإنَّ الشعر ديوانُ العرب ، أى أصله، ويقال : دَوِّنْ هذا : أى أثبِتْهُ واجعله أصلاً .

وزعم بعضُ أهلِ اللغة أنَّ أصله عجمىٌ ، وبعضهم يقول : عربى ، وقد ذكره سيبويه فى «كتابه» ، وتكلم على أنَّ أصله دوَّان ، واستدلَّ على ذلك بقولهم فى الجمع : دواوين . وهذا

---

(١) النسائى فى البيوع ، ب التجارة (٤٤٥٦) ، وكنز العمال (٣٨٥٢٠) .

قولٌ حَسَنٌ ، أبدلوا من أحد الواوين ياء . ونظيره دينار ، الأصلُ فيه دنار ، وكذا قيراط الأصل فيه قراط . فأما الفَرَّاء فيزعم أنك إذا سميتَ رجلاً بديوان وأنت تريد كلام الأعاجم لم تصرفه، وهذا عندى غلط ؛ لأنك إذا سميت رجلاً ديواناً على أنه أعجميٌّ لم يَجزْ إلا صرفه لأن الألف واللام لا يدخلان فيه ، فقد صار بمنزلة طاووس وراقود وما أشبههما ، وإنْ جعلته عربياً صرفته أيضاً لأنه فعال ، الدليل على ذلك قولهم: دواوين ، وديوان بالفتح غلط ، ولو كان بالفتح لم يجز قلب الواو ياء . فإن قيل : الياء أصل ،قيل: هذا خطأ ، ولو كان كذا لقيل فى الجمع: دياوين ، فدَيوان لا يقال كما لا يقال: دَينار ولا قَيراط . وزعم الأصمعىُّ أنَّ أصله أعجمى ، وروى أنَّ كسرى أمرَ الكُتَّاب أنْ يجتمعوا فى دار فيعلموا حساب السواد فى ثلاثة أيام، فاجتمعوا فى الدار واجتهدوا ، فأشرفَ عليهم وبعضُهم يعقد [1] وبعضهم يكتبُ ، فقال : « إيشان ديواشد» أى : هؤلاء مجانين ، فلزم موضع الكتابة هذا الاسم من ذلك الدهر ، ثم عَرَّبَتْهُ العربُ فقالت : ديوان . انتهى ما ذكره أبو جعفر .

قال : والدفتر اسم عربى لا نعلم له اشتقاقاً ، وكان أبو إسحاق يذهب إلى أنَّ كُلَّ اسمٍ عربى ، فهو مشتق إلا أنه ربما غاب عن العالم شىءٌ وعرفه غيره ، يقال له : دَفتر ودِفتر وتفتر ثلاث لغات . وقال الجوهرىُّ : الدفتر واحدُ الدفاتر وهى الكراريس [2] ، قال أبو جعفر : والكُرَّاسة معناها : الكتبُ المضمومةُ بعضُها إلى بعضٍ والورقُ الذى أُلصقَ بعضُه إلى بعضٍ مشتق من قولهم : رسم مكرس : إذا ألصقت الريح التراب به ،وقال الخليل : الكراسة مأخوذة من كراس الغنم وهو أن يبولَ فى الموضع شيئاً بعد شىء ، فيتلبد . انتهى كلامه .

وقال الماوردى : أصلُ الكُراس والكَراريس العلم ، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كُراسة .

وقال الجوهرى : والكراسة واحدة الكراس [3]. والصحيفة : الكتاب ، والجمع : صحف وصحائف ، قال أبو جعفر : وقيل : مصحف لأنه مجمعُ الورقِ الذى يُصحف فيه ، من أصحف كمُكرم ، ومن قال : مَصحف بفتح الميم ، جعله من صحفَت مصحفاً مثل : جَلستُ مَجلساً ، ومن كسر الميم شبهه بمِنقَل .

وأما السفر : فمشتق من أسْفَرَ الشىءُ إذا تَبَيَّنَ ، فهو الذى فيه البيانُ ، ومنه أسفر الصبحُ إذا تبين ، وأسفر وجه المرأة إذا أضاء .

وسُمِّىَ القلمُ قلماً ؛ لأنه يُقلَم أى يُقْطَعُ منه ، ومنه قَلمتُ أظفارى ، وقبلَ قطعه ليس بقلم ولكنه أنبوب . وقيل: القلم مشتق من القُلاَّم ، وهو نبت ضعيف واهى الأصل ، فقيل :

(١) فى المخطوطة : « يقعد » والمثبت من ر ، ط .

(٢) انظر : اللسان ، مادة « دفتر » .

(٣) انظر : اللسان ، مادة « كرس » .

قلم ، لأنه خُفِّفَ وأُضْعِفَ بما أخذ منه ، ورجلٌ مُقَلَّمُ الأظفارِ من هذا ، أى : ضعيفٌ فى الحرب ناقص، ويقال : رَعَفَ القلمُ : إذا قطر، وأَرْعَفَ الرجل القلم : إذا أخذ فيه مداداً كثيراً حتى يقطر ، ويقال : استمدد ولا تُرعف : أى : لا تُكْثِرِ المِدادَ حتى يقطر . ويقال : ذَنَبْتُ القلمَ فهو مُذْنَب ، فأما الرطب فيقال فيه مُذَنِّب من ذَنَّبَ هو ، ويقال : حفى القلم يحفى حُفْوَةً وحِفْوَةً وحِفيةً وحِفايةً وحفى مقصور ، فأما الحفاء ممدوداً ، فمشىُ الرجل بلا نعل.

ويقال للقطعة التى تُقطع من الأنبوبة: شظية ، مشتق من شظى القوم تَفَرَّقُوا ، ويقال : قَلَمٌ ذَنُوبٌ : إذا كان طويلَ الذنب ، كما يقال : فَرَسٌ ذَنُوبٌ ، وللقلم سِنَّانِ فإذا كان الأيمن أرفع قيل : محرَّف ، وإن استويا قيل : قلمٌ مستوى السِّنَّيْن .

وأشحمتُ القلم : تركتُ شحمه فلم آخذه ، فإن أخذت شحمه قلت : بطنته تبطيناً .

يقال : بريتُ القلم برياً ، وما سقط منه بُراية ، وقد يقال للقلمِ نفسه : بُراية ؛ لأن العربَ تجعل فُعالة لكل ما نقصَ منه ، فيقولون : قُطاعة وقُوارة ، ذكره أبو جعفر . وقال الجوهرى : قَوَرَهُ واقْتَوَره واقتاره ، بمعنى قطعه مُدوراً [1] ، ومنه : قُوَارَة القميص والبِطيخ ، وقال : والقُطاعة بالضم : ما سقط عن القطعِ ، قال أبو جعفر : يقال : قَطَطتُ القلمَ ، أى : قطعتُ منه، والقلم مَقْطوط وقَطَطٌ وقَطيط، والمِقَطُّ : الذى يُقط القلم عليه ، والمَقط بفتح الميم: الموضع الذى يُقط من رأس القلم ، وهو مشتق من قططت ، أى : قطعت ، وما رأيته قط ، أى : انقطعت الرؤية بينى وبينه . والقط الكتاب بالجائزة ؛ لأنه يقطع ، ومنه يعطى القطوط وثائق ، وقط بمعنى حَسْب .

والدَّوَاةُ جمعها : دويات فى العدد القليل كذا قال أبو جعفر ، وفى الكثير دُوى بضم الدال ويقال بكسرها ودوى ودوايا ، ويقال : أدويت دواة : إذا اتخذتها ، وقد دوى الدواة ، أى : عملها ، فهو مدو مثل مقن للذى يعمل القنا . ويقال لمن يبيعها : دوَّاء مثل تَبَّان للذى يبيعُ التبن ، والذى يحملها ويمسكها داوٍ ، ومثله رامح : للذى يحمل الرمح . واشتقاق المداد من المدد للكاتب وهى جمع مدادة يذكر ويؤنث .

قال الفَرَّاءُ ــ واسمه يحيى بن زياد الكوفى توفى سنة تسع ومائتين: إن جعلت المداد مصدراً لم تثنه ولم تجمعه ، ويقال : أمْددتُ الدواة إذا جعلت فيها المداد ، فإن زدت على مدادها قلت : مددتها . واستمددت منها ، أى : أخذت ، فإن أخذت مدادها كله قلت : قَعَرْتُ الدواةَ أقعَرها قعراً، واشتقاقه أنك بلغت إلى قعرها ، وقد سمع أقعرت الإناء إقعاراً : إذا جعلت له قعراً . وإذا ألصق القطن يعنى أو غيره بالدواة فهو ليقة ، مشتق من قولهم : ما يليق فلانٌ بقلبى ، أى : ما يلصق به . ويقال : أَلَقْتُ الدَّواة إلاَقَةً ولُقْتُها لَيقاً ولُيوقاً ولَيَقَاناً إذا

---

(١) انظر : اللسان ، مادة « قور » .

ألصقتُ مِدَادَها ، وقد أنعمت لِيقَةَ الدَّوَاة إنعاماً أى زدت فى لِيقها ، وأنعم الشىء : إذا زاد، ومنه الحديث : « وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » (١) ، أى : زاد على ذلك ، ومنه سحقتُ المِدادَ سحقاً نعماً ، قيل للفراء : لم سُمِّىَ المدادُ حبراً ؟ قال : يقال للعالم حبر وحَبر، وإنما أرادوا مداد حبر ، فحذفوا مداداً ، ثم جعلوا مكانه حبراً كقوله تعالى : ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] .

وقال الأصمعىُّ : ليس هذا بشىء ، وإنما هو لتأثيره يقال : على أسنانه حِبْرةٌ يقال : إذا كثرت فيها الصفرة حتى تضرب إلى السواد ، قال محمد بن يزيد : وأنا أحسب أنه إنما سُمِّىَ حبراً ؛ لأنه تُحَبَّرُ (٢) به الكتب .

قال أبو جعفر النحاس : من حُسْنِ تقديرِ الكاتبِ ألاَّ يُفَرِّقَ بين المُضاف والمضافِ إليه فى سطر ، كذا أعزه اللّه ، وكذا أحدَ عَشَر ، لأنه كاسمٍ واحد .

ويُستحسنُ المَشْقُ فى الشين والسين إلا فى أواخر الكلم نحو « الناس » ، وأصلُ المَشْقُ فى اللغة : الخفَّة ، يقال : مَشَقَ بالرمح ، ومَشَقَ الرجل الرغيف : إذا أكله أكلاً خفيفاً ، فمعنى مَشَقَ الكاتب : إذا خفف يده ، وهذا اختيار محدث . وأما رؤساء الكتاب المتقدمين ، فكانوا يكرهون المشقَ كله وإرسال اليد ، ويقول بعضهم : هو للمُبْتدئ مفسدةٌ لخطِّه ودليلٌ على تَهاونِه بما يكتبه . وقد ذكره الفقهاء أن يكتب بسم الله بغير سين .

ويستحسنون إذا توالتِ السينُ والشينُ فى كلمةٍ أن يقدر الكاتب فصلاً بمدة . ويستحسنون فى كتابة نحو « بين » أن يرفع الوسطى من الثلاث فرقاً بين ذلك وبين السين والشين . ويستحبون أنْ تكونَ الكافُ غير مشقوقة إذا كانت طرفاً عندهم ويحبون تعليمها إذا كانت متوسطة ، ولا تعلم إذا كانت طَرَفاً ، ويستحبون أن تكون الألفاظُ سهلةً سمحةً غير بشعة .

ومما يستحسنون لإبراهيم بن مهدى تَوقيعه إلى كاتبه : إياك والتتبع لِحَوْشىّ الكلام طمعاً فى نيلِ البلاغةِ ، فإنَّ ذلك العىّ الأكبر ، وعليك بما يسهلُ مع تَجَنُّبكَ للألفاظ السفل . وكذا ما روى من صفة يحيى بن زياد الكاتب ، فإنه قال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أسهلَ مَقاد ، وساقه أحسن مَساق ، فاسترجع به القلوبَ النافرة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

وقال الجاحظ : لم أر قوماً أمثل طبقةً فى البلاغةِ من الكتاب ، وذلك لأنهم التمسوا ما لم يكن متوعِّراً من الألفاظ حوشياً ، ولا ساقطاً عامياً .

---

(١) أحمد ٣/ ٢٦ ، وأبو داود فى الحروف والقراءات ، ب الحروف والقراءات (٣٩٨٧) ، وابن ماجه فى المقدمة ، ب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٦) ، كلهم عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) تحبَّر: تزين .

وقال محمد بن الفضل صاحب كتاب « الديباج » : يجب للكاتب أن يعدل بكلامه عن الغريب الحوشى ، والعامى السوقى ، والرذل السليقى ، ويجانب التقعير ، ويجب أن يعمل نفسه فى تنزيل الألفاظ . وسئل أعرابىٌّ مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة. وقد سبق فى فصولِ رَدِّ السلامِ رَدُّ جوابِ الكتاب وما يتعلق بذلك .

وروى أبو داود فى الخراج : عن عمرو بن عثمان ، عن محمد بن حرب ، عن أبى مسلمة سليمان بن سليم، عن يحيى بن جابر ، عن صالح بن يحيى بن المقدام ، عن جده ــ وفى نسخة عن أبيه عن جده ــ أن النبى ﷺ ضرب على منكبه ثم قال له : « أفلحتَ يا قُدَيْمُ إنْ مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً » (١) ورواه أحمد عن أحمد بن عبد الملك الحَرَّانى، عن محمد بن حرب الأبرش ، عن سليمان ، عن صالح ، عن جده صالح(٢) ، قال البخارى: فيه نظر ، وقال ابن حبان فى « الثقات » : يخطئ .

فصل فى نظر الرجل فى كتاب غيره بإذنه أو رضاه

قال الخلاَّل : (كراهية النظر فى كتاب الرجل إلا بإذنه)، قال أبو بكر بن عسكر: كنتُ عند أبى عبد اللّه وعنده الهيثم بن خارجة ، فذهبت أنظر فى كتاب أبى عبد اللّه فكره أبو عبد اللّه أن أنظر فى كتابه .

واطَّلع عبد الرحمن بن مهدى فى كتاب أبى عوانة بغير أمره فاستغفرَ اللّه مرتين .

وقال أحمد فى رواية مهنا فى رجلٍ رهنَ مصحفاً : هل يقرأ فيه ؟ قال : أكرهُ أنْ ينتفعَ من الرَّهنِ بشىءٍ .

وقال فى رواية عبد اللّه فى الرجلِ يكونُ عنده مصحف رهن : لا يقرأ إلا بإذنه .

وقال فى رواية إسحاق بن إبراهيم فى الرجل يرهن عنده المصحف يستأذنه فى القراءة فيه، فإنْ أَذِن له قرأ فيه .

قال القاضى فى « الجامع الكبير » : أما منعه من القراءة إلا بإذن صاحبه مع قولنا : إنه يلزمه بَذْلُه إذا طلبه الغيرُ للقراءة ، فهو محمولٌ على أنه كان يجدُ مصحفاً غيره ، وإنما يلزمه بذله عند الحاجة . وقال فى « الرعاية » عند مسألة رهن المصحف : ولا يقرأ أحدٌ فى المصحف بلا إذن ربِّه ، وقيل : بلى إنْ لم يضر ماليته . وإنْ طلبه أحدٌ ليقرأ فيه لم يَجِبْ بذله ، وقيل : يجب ، وقيل : عند الحاجة إليه . وذكر بعضُ الشافعية ما هو ظاهرٌ فى أَنَّ النظرَ فى كتابِ الغيرِ من كتبِ العلم لا يَحْرُمَ ، وفى الحديث عن النبى ﷺ : « مَنْ نظر فى كتابِ أخيه بغير

(١) أبو داود فى الخراج والإمارة ، ب فى العرافة (٢٩٣٣) .
(٢) أحمد ٤/ ١٣٣ .

إذنه فكأنما ينظرُ فى النار » [1] .

قال ابن الأثير فى « النهاية » : وهذا محمولٌ على الكتاب الذى فيه سِرٌّ وأمانةٌ يكره صاحبه أنْ يطلع عليه ، قال : وقيل : هو عام فى كُلِّ كتاب [2] .

وقال البخارىُّ : (باب مَنْ نظر فى كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره) [3] وذكر كتابَ حاطب بن أبى بلتعة وقصته ، وهذا متوجهٌ فى العلم ومع الظنِّ فيه نظرٌ ، ويحرم مع الشَّكِّ . والقصة قضية عين .

قال فى « شرح مسلم » : فيه هتكُ سِتْرِ المفسد إذا كان فيه مصلحةٌ [أو كان فى السترِ مفسدة ، وإنما يندب الستر إذا لم يَكُنْ فيه مفسدةٌ ولا تفوتُ به مصلحة] [4] .

فصل فى بذل العلم ومنه إعارة الكتب

قال الخلال : (كراهية حبس الكتاب) قال المروذى : قلت لأبى عبد اللّه : رجلٌ سقطت منه ورقةٌ فيها أحاديث فوائد فأخذتها ، ترى أنْ أنسخَها وأسمعها ؟ قال : لا ، إلا بإذن صاحبها . وقال يونس بن يزيد : قال لى الزهرى : إياكَ وغلولَ الكتبِ ، قال : حَبْسها عن أهلها . انتهى ما ذكره الخلال .

وقال الطحاوى : كان الشافعىُّ قد طلب من محمد بن الحسن كتابَ « السِّيَر » فلم يُجِبْهُ إلى الإعارةِ ، فكتب إليه :

قُلْ للذى لم ... تَرَ عين مَنْ رآه مثله
حتى كأن مَنْ رآ ... ه قد رأى من قبله
العلمُ ينهى أهله ... أنْ يمنعوه أهله
لعله يبذله ... لأهله لعله

فوجه إليه به فى الحال هديةً لا عارية .

وقال ابن الجوزى : ينبغى لمن مَلَكَ كتاباً ألا يبخلَ بإعارته لمن هو أهله . وكذلك ينبغى إفادة الطالبين بالدلالةِ على الأشياخِ وتفهيم المُشْكل ، فإنَّ الطلبةَ قليلٌ وقد عَمَّهُمُ الفقرُ فإذا بخل عليهم بالكتاب والإفادة كان سبباً لمنع العلم .

---

(١) فتح البارى ١١/١٤٣ ، وأبو داود فى الصلاة ، ب الدعاء (١٤٨٥) عن ابن عباس .
(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/١٤٨ .
(٣) البخارى فى الاستئذان ، ب من نظر فى كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره (٦٢٥٩) عن على بن أبى طالب .
(٤) سقط فى المخطوطة ، وهو فى أ ، ر ، ط .

قال سفيان: تَعَجَّلُوا بركةَ العلم، ليفد بعضكم بعضاً، فإنكم لعلكم لا تبلغون ما تؤمِّلون. وقال وكيع: أولُ بركةِ الحديث إعارة الكتب . وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلى بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينساه ، أو يتبع السلطان .

فصل فى قيام أهل الحديث الليل وخشوعهم

باتَ عند الإمام أحمد رجلٌ ، فوضع عنده ماء ، قال الرجل : فلم أَقُمْ بالليلِ ولم أستعمل الماء ، فلما أصبحتُ قال لى : لِمَ لا تستعمل الماء ؟ فاستحييتُ وسكت ، فقال : سبحان اللّه ! سبحان اللّه ! ما سمعتُ بصاحبِ حديث لا يقومُ بالليل . وجرت هذه القصة معه لرجلٍ آخر ، فقال له : أنا مسافر ، قال : وإنْ كنتَ مسافراً ، حَجَّ مسروقٌ فما نامَ إلا ساجداً ! قال الشيخ تقى الدين : فيه أنه يُكْرَهُ لأهلِ العلم تركُ قيامِ الليل وإن كانوا مسافرين.

وقال بشر بن الحارث : ينبغى لأصحابِ الحديث أنْ يُنْزِلوه بمنزلةِ الدراهم يعلّمون من كل مائتين خمسة .

وقال سفيان : فى الإنجيل : لا تطلبوا عِلْمَ ما لم تَعْلَمُوا حتى تعملوا بما قد عَلِمْتُمْ .

وصَحَّ عن الحسن قال : كان الرجلُ يسمع البابَ من أبواب العلم فيعلمه ، فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها لو كانت له فوضعها فى الآخرة .

وقال أبو جعفر أحمد بن بديل : لقد رأيتنا ونحن نكتبُ الحديثَ فما يسمع إلا صوت قلمٍ أو باكٍ .

وقال عبد اللّه : كان أبى ساعةَ يُصلى عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلى ويدعو .

وقال إبراهيم بن شماس : كنت أعرفُ أحمدَ بن حنبل وهو غلامٌ وهو يُحْيِى الليلَ .

فصل فى الأدب مع المحدث ومنه التجاهل والإقبال والاستماع

قال الخلال : أخبرنا الدورى قال : سمعتُ أبا عبيد القاسم بن سَلاَّم يقول : إنَّ من شُكْرِ العلْمِ أنْ يجلسَ مع رجلٍ فيذاكره بشىءٍ لا يعرفه ، فيذكر له الحرف عند ذلك فيذكر ذلك الحَرفَ الذى سمعه من ذلك الرجل ، فيقول : ما كان عندى من هذا شىءٌ حتى سمعتُ فلاناً يقولُ فيه كذا وكذا ؛ فإذا فعلتَ ذلك فقد شكرتَ العلم ، ولا تُوهمهم أنَّك قلت هذا من نفسك .

وقال ابنُ الجوزىِّ : وإذا روى المُحَدَّثُ حديثاً قد عَرَفَهُ السامعُ ، فلا ينبغى أنْ يُداخِلَهُ فيه ، قال عطاء بن أبى رباح : إنَّ الشاب ليحدثنى بحديث فأستمع له كأنى لم أسمعه ولقد سمعتهُ قبل أنْ يولد ، ثم روى بإسناده عن خالد بن صفوان قال : إذا رأيتَ مُحَدِّثاً يُحَدِّثُ حديثاً قد

سمعتَهُ أو يُخبرُ بخبرٍ قد علمته، فلا تشاركه فيه حرصاً على أنْ يعلم مَنْ حَضَرَكَ أنك قد علمته؛ فإن ذلك خِفَّةٌ فيكَ وسوءُ أدب .

وروى أبو حفص العُكْبَرِىُّ فى « الأدب » له : عن ابن وهب قال : إنى لأسمعُ من الرجل الحديثَ قد سمعته قبل أنْ يجتمع أبواه ، فأُنصت له كأنى لم أسمعه ، ثم روى ما تَقَدَّمَ عن عطاء ، ثم قال : سمعت أبا على الحسن بن عبد اللّه جليس أبى أحمد الفقيه البغدادى يقول : يروى عن سفيان الثورى أنه قال ، وتراه يعجب من حديثه ولعله أدرى به . وروى ما تقدم عن خالد بن صفوان ، وروى ذلك ابن بطة .

قال ابنُ الجوزىِّ : ومتى أشكل شىءٌ من الحديثِ على الطالب صبرَ حتى ينتهى الحديث ، ثم يستفهم الشيخ بأدبٍ ولطف ، ولا يقطع عليه فى وسط الحديث . قال : وفى أصحاب الحديثِ مَنْ يُنزلُ جزءاً فى جزء ويُوهم الشيخ أنه جزءٌ واحد ، ومثلُ هذه الأفعال لا يجوزُ اعتمادها .

وروى ابن بطة عن إبراهيم بن الجنيد : قال حكيم لابنه : تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تعلم حسن الكلام ؛ فإنَّ حُسْنَ الاستماع إمهالكَ للمتكلم حتى يُفضى إليك بحديثِه والإقبال بالوجه والنظر وترك المشاركةِ له فى حديثٍ أنتَ تعرفهُ ، وأنشد :

ولا تشارك فى الحديث أهْلَهُ وإنْ عرفتَ فَرعهَ وأصلَهُ

وروى أيضاً عن الهيثم بن عدى (١) قال : قالت الحكماء : إن من الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجلِ على كلامه ، والاعتراض فيه لقطع حديثه .

وروى أيضاً عن مجاهد قال لقمان لابنه : إياك إذا سُئِلَ غيرك أنْ تكون أنتَ المجيب كأنك أصبتَ غنيمةً أو ظفرتَ بعطيّةٍ ، فإنك إنْ فعلتَ ذلك أزريتَ بالمسؤول وعَنَّفتَ السائل ، ودللتَ السُّفهاء على سفاهة حلمكَ وسوءِ أدبك ، يا بنىَّ ليشتدَّ حِرْصُكَ على الثناء من الأكفاء ، والأدب النافع ، والإخوان الصالحين .

قال ابن بطة : كنتُ عند أبى عمر الزاهد فسئل عن مسألة ، فبادرتُ أنا فأجبتُ السائلَ ، فالتفتَ إلىَّ فقال لى : تعرف الفضوليات المنتقبات ؟ يعنى أنت فضولى ، فأخجلنى . وذكر ذلك أيضاً أبو جعفر العكبرى فى « الأدب » له .

---

(١) هو الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر الأخبارى العلامة أبو عبد الرحمن الطائى الكوفى المؤرخ ، حدث عن هشام بن عروة ، ومجالد ، وابن أبى ليلى وغيرهم ، وروى عنه محمد بن سعد وأبو الجهم الباهلى وغيرهما ، اختلف فى توثيقه ، توفى سنة سبع ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٣ ، ١٠٤] .

فصل

فى طبقات القاضى أبى الحسين زهير بن أبى زهير : نقل عن إمامنا أشياء منها قال : قلتُ لأحمد : إنَّ فلاناً ــ يعنى أبا يوسف ــ ربما سعى فى الأمورِ مثل المصانع والمساجدِ والآبار ، فقال لى أحمد : لا لا ، نَفْسُه أوْلى به . وكره أن يبذل الرجلِ وجهه ونفسه لهذا . وذكره أيضاً الخَلاَّل ، وأبو يوسف هو الغسولى .

وقال مهنا : سمعتُ بشر بن الحارث وذكر له رجل يسألُ الناسَ فقال بشر : مَنْ يقتدى به فى هذا ؟ فقال: مالكُ بن دينار ، فقال له بشر : أريدُ أرفع من مالك بن دينار ، فسمعتُ بشراً يقول له : لا تفعلْ ، ولا تطلبْ من صاحبِ دنيا حاجةً ، دعْهُ حتى يكونَ هو يطلب إليك .

وكان المتوكل على اللّه يبعثُ يحيى بن خاقان إلى الإمام أحمد كثيراً ويسأله عن أشياء . قال المروذى : وقال لى أبو عبد الله : قد جاءنى يحيى بن خاقان ومعه شوى ، فجعل يقلله أبو عبد اللّه ، فقلتُ له : قالوا : إنها ألف دينار ، قال : هكذا ، فرددتها عليه ، فبلغ الباب ثم رجع فقال : إن جاءك لأحد من أصحابك شىء تقبله ؟ قلت : لا ، قال : إنما أريد أن أخبر الخليفة بهذا. قلتُ لأبى عبد اللّه : أى شىء كان عليكَ لو أخذتَها فقسمتها ؟ فكلحَ فى وجهه، وقال : إذا أنا قسمتها ، أى شىء كنت أريد أن أكون له قهرماناً ؟!

وقال أبو طالب لأبى عبد اللّه : رجلٌ جاءنى ومعه دراهم ، فقال لى : خُذْ هذه الدراهم، فَتصدَّقْ بها فى جيرانك ، فأبيتُ فلم يَزَلْ يطلبُ إلىَّ ، فأبيتُ ، فقال : لا يحلُّ لك ولا يسعك أن تمنعَ المساكينَ والفقراء ، فلم آخذها ؟ أكون قد أثمتُ إذا رددتها ؟ قال : لم تأثم، مَنْ يَسْلَمُ من هذا ؟ قد أحسنتَ ، لو أخذتها لم تسلم . وروى يعقوب عنه : إن لم يتعرض له كان أسلم له .

وروى الخلال عن أبى الدرداء قال : ما أحبُّ أنَّ معاويةَ بعث إلىَّ ثلاثةَ آلاف دينار فأتصدق بها ، فقيل له : أولم تؤجر ؟ ولا تَرُدُّ شيئاً ، فقال : إنى أخاف وساوس نفسى وعواذلَ قومى ، فَيُحبط ذلك أجرى ، والسلامةُ أحبُّ إلى .

وقال الخلال فى « الأخلاق » : حدثنا إبراهيم بن جعفر بن حاتم ، حدثنى محمد بن الحسين بن الجنيد ، عن هارون بن سفيان المستملى قال : جئتُ إلى أحمد بن حنبل حين أرادَ أنْ يُفَرِّقَ الدراهم التى جاءته من المتوكل ، قال : فأعطانى مائتى درهم ، فقلتُ : لا تكفينى ، قال: ليس هاهنا غيرها ، ولكن هو ذا أعمل بك شيئاً ، أعطيك ثلاثمائة تفرقها ، قال : فلما أخذتها قلت : يا أبا عبد اللّه ، ليس واللّه أُعطى أحداً منها شيئاً فتبسم .

وقال صالح لأبيه : ما تقول فى امرأة مسكينة تكونُ معى فى دارى فربما أتونى بشىءٍ للمساكين ، فأعطيها منه إذا قسمتُ ، فقال : لا تُحابِهَا وأعطها كما تعطى غيرها .

فصل فى الاشتغال بالمذاكرة عن النوافل وفضل أهل السنة والأصدقاء

قال عبد اللّه بن أحمد : لما قدم أبو زرعة نزلَ عند أبى فكان كثيرَ المذاكرة له ، فسمعتُ أبى يوماً يقول : ما صليتُ غيرَ الفرائض ، استأثرتُ بمذاكرةِ أبى زرعة على نوافلى .

وروى الخلال فى أخلاق أحمد أنَّ إسحاق قال : كنا عند عبد الرزاق أنا وأحمد بن حنبل، قال : فمضينا معه إلى المصلَى يوم عيد ، قال : فلم يكبر عبد الرزاق ولا أنا ولا أحمد بن حنبل قال : فقال لنا : رأيت مَعْمَراً والثورى فى هذا اليوم كَبَّرا فكبرتُ ورأيتكما لا تُكبران فلم أُكَبِّرْ ، أو قال : ورأيتكما لا تكبران فَهبتُ ، قال عبد الرزاق : فَلِمَ لم تكبرا ؟ قال فقلنا : نحنُ نرى التكبيرَ ، ولكن شُغِلْنا بأىِّ شىءٍ نَبتدئ من الكتب ؟

وقال صالح بن موسى أبو الوجيه : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : ومَنْ يفلتُ من التصحيف؟ لا يفلت أحدٌ منه .

وقال الخلال : أخبرنا طالبُ بن حرة الأذنى قال : حضرتُ أحمدَ بن حنبل فقال : علامةُ المريد ، قطيعةُ كُلِّ خليطٍ لا يريدُ ما تريد .

وفى « طبقات القاضى أبى الحسين » : أخبرنا محمد بن أبى الصقر ، حدثنا هبة اللّه الشيرازى [1] ، حدثنا على بن محمد بن طلحة ، أنبأنا سليمان الطبرانى ، حدثنا عبد اللّه بن أحمد ، حدثنا أبى ، قال : قبورُ أهلِ السنة من أهلِ الكبائر روضةٌ ، وقبورُ أهل البدع من الزنادقة حفرةٌ ، فُسَّاقُ أهل السنة أولياء اللّه ، وزُهَّادُ أهلِ البدعة أعداء اللّه . وقال عبد اللّه بن أحمد : سئل أبى : لِمَ لا تَصحب الناسَ ؟ قال : لوحشة الفراق . وروى ابن بطة عن محمد ابن الحنفية قال : وحشةُ الانفراد أبقَى للعزِّ من مؤانسة اللقاء .

وقال عبد اللّه بن جعفر : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول ، وسئل عن الرجل يكتبُ الحديثَ فيكثُر ، قال : ينبغى أنْ يكثر العملَ به على قَدْرِ زيادته فى الطلب ، ثم قال : سبيلُ العلم مثل سبيلِ المال ، إنَّ المال إذا زادَ زادتْ زكاته .

وفى «طبقات القاضى أبى الحسين»: وأنبأنا يوسف بن محمد المهروانى، حدثنا عبد الواحد ابن عبد العزيز ، سمعت المطيع الخليفة على المنبر يقول فى يوم عيد : سمعتُ شيخى عبد اللّه البغوى يقول : سمعتُ الإمامَ أحمد بن حنبل يقول : إذا مات أصدقاءُ الرجل ذلَّ .

وقال عبد اللّه : حدثنى أبى : حدثنا سفيان بن عيينة قال : قال لى أيوب : إنه ليبلغنى موتُ الرجل من إخوانى ، فكأنما سقط عضوٌ من أعضائى .

---

(١) هو هبة الله بن عبد الوارث بن على الإمام الحافظ المحدث أبو القاسم الشيرازى ، حدث عن أحمد بن طوق الموصلى ، وأبى جعفر بن المسلمة وغيرهما ، وروى عنه عمر بن أحمد الصفار ، وأحمد بن ياسر المقرئ وغيرهما ، كان ثقة خيراً ، كثير العبادة ، مات سنة ست وثمانين وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء ١٧/١٩ ــ ١٩] .

فصل فى قضاء الحوائج والشفاعة فيها لدى الأئمة والسلاطين

قد سبق فى الاستئذان كلام يتعلق بقضاء الحوائج والمساعدة عليها ، وجاء رجلٌ إلى أبى الحسن بن سهل يستشفعُ به فى حاجة فقضاها ، فأقبل الرجلُ يشكره فقال له الحسنُ بن سهل : عَلامَ تشكرنا ونحن نرى أنَّ للجاهِ زكاةً كما أنَّ للمالِ زكاةً ؟ وفى لفظ : ونحن نرى أن كَتْبَ الشفاعات زكاة مروءاتنا ، ثم أنشأ يقول :

فرِضَتْ علىَّ زكاةُ ما مَلكتْ يدي ... وزكاةُ جاهي أنْ أُعينَ وأشفعا
فإذا ملكتَ فَجُدْ فإنْ لم تستطع ... فاجهدْ بوسعكَ كُلِّه أنْ تنفعا

وقال القاضى المعافى بن زكريا : ولله در القائل :

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة ... من جاهه ، فكأنما من ماله

وروى ابنُ أبى شيبة فى « مصنفه » ، وابنُ ماجه من حديث موسى بن عبيدة الرَّبَذى ــ وهو ضعيف ــ عن جُمْهان ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لكلِّ شىءٍ زكاةٌ ، وزكاةُ الجسدِ الصومُ» (١) ، وقال بعضهم :

وإذا السعادة أحرستك عيونُها ... نَمْ فالمخاوف كُلُّهُنَّ أمان (٢)
واصْطَدْ بها العَنْقَاءَ فى حبائل ... واقْتَدْ بها الجوزاءَ فهى عَنَان

وعن أبى موسى رضى اللّه عنه : عن النبىِّ ﷺ أنه كان إذا أتاه السائلُ أو صاحبُ الحاجة قال: « اشفعوا فلتؤجروا ، ويَقضى اللّهُ على لسانِ رسوله ما شاء ».رواه البخارى ومسلم (٣). وفى لفظة : « تؤجروا » ، رواه أحمد (٤) ، ولأبى داود : « اشفعوا إلىَّ لتؤجروا ، وليقض اللّهُ على لسان رسوله ما شاء » (٥) .

وعن معاوية ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ الرجلَ ليسألنى عن الشىءِ ، فأمنعه كى تَشْفَعُوا له فَتُؤْجَرُوا » (٦) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى مصنفه فى الصوم ، ب من كان يكثر الصوم ويأمر بذلك ٣/ ٧ ، وابن ماجه فى الصوم، ب فى الصوم زكاة الجسد (١٧٤٥) . وقال فى الزوائد : « إسناد الحديث عن الطريقين معا ضعيف فيه موسى بن عبيدة الزيرى ومدار الطريقين عليه ، وهو متفق على تضعيفه » .

(٢) المحفوظ : وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم . . . . . .

(٣) البخارى فى الأدب ، ب قوله تعالى : ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ (٦٠٢٨) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧/ ١٤٥) .

(٤) أحمد ٤/ ٤٠٠ .

(٥) أبو داود فى الأدب ، ب فى الشفاعة (٥١٣١) .

(٦) النسائى فى الزكاة ، ب الشفاعة فى الصدقة (٢٥٥٧) .

وقال رسول الله ﷺ : « اشفعوا تؤجروا » . رواه النسائى عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن وهب بن منبه ، عن أخيه همام ، عن معاوية . إسناد جيد (١) .

وقال ابنُ عبد البر عن رسولِ اللّه ﷺ قال : « استعينوا على حوائجكم بالكتمان ؛ فإنَّ كَلَّ ذى نعمةٍ محسود » (٢) .

وقال محمد بن واسع لقتيبةَ بن مسلم : إنى أتيتك فى حاجة رفعتها إلى اللّه قَبلكَ ، فإنْ يأذنِ اللهُ فيها قضيتَها وحمدنَاك ، وإنْ لم يأذن اللّه فيها لم تَقْضِهَا وعَذَرْنَاكَ . وقال يونس :

أنزلتُ بالحُرِّ إبراهيم مسألةً ... أَنْزَلْتها قبل إبراهيم باللّهِ
فإنْ قضى حاجتى فاللّه يَسَّرَها ... هو المُقدِّرُها والآمرُ الناهى
إذا أبى اللّهُ شيئاً ضاق مذهَبُهُ ... عن الكبيرِ العريضِ القَدْرِ والجاهِ

قال أبو العتاهية (٣) :

خيرُ المذاهبِ فى الحاجاتِ أَنْجَحُهَا ... وأضيق الأمر أدناهُ إلى الفَرَجِ

وكتب سَوَّار بن عبد اللّه بن سَوَّار القاضى إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر :

لنا حاجةٌ والعُذْرُ فيها مُقَدَّمٌ ... خفيفٌ ومعناها مضاعفةُ الأجر
فإنْ تَقْضِهَا فالحمدُ للّهِ ربِّنَا ... وإن تَكُنِ الأخرى ففى واسعِ العذر
على أنه الرحمن مُعْطٍ ومانع ... وللرزقِ أسبابٌ إلى قدر يجرى

فأجابه محمد بن طاهر :

فَسَلْها تَجِدْنى مُوجباً لقضائها ... سريعاً إليها لا يُخَاطِبُنى فكر
شَكُورٌ بإفضالى عليكَ بمثلها ... وإنْ لم يكن فيما حوته يدى شكرُ
فهذا قليلٌ للذى قد رأيته ... لحقِّكَ لا منٌّ لدىَّ ولا ذخرُ

---

(١) انظر التخريج السابق .

(٢) أبو نعيم فى حلية الأولياء ٥/ ٢١٥ ، وقال : « غريب من حديث خالد تفرد به عنه ثور حدث به عمرو بن يحيى البصرى عن شعبة عن ثور » .

(٣) هو رأس الشعراء ، الأديب الصالح الأوحد ، أبو إسحاق ، إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزى مولاهم الكوفى ، نزيل بغداد ، لقب بأبى العتاهية لاضطراب فيه ، سار شعره لجودته وحسنه وعدم تقعره ، قال فى المواعظ والزهد فأجاد ، توفى فى جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥ ــ ١٩٨] .

وقال جعفر بن محمد : حاجةُ الرجل إلى أخيه فتنةٌ لهما ، إنْ أعطاه شكر مَنْ لم يُعْطِه ، وإنْ منعه ذَمَّ مَنْ لم يمنعه . وقال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج عند غير أهلها ، ولا تطلبوها فى غير حينها ، ولا تطلبوا ما لا تستحقون منها ، فإنَ مَنْ طلب ما لا يستحق ، استوجب الحرمان .

وقال رجلٌ للعباس بن محمد أو لعبد اللّه بن العباس : أتيتُكَ فى حاجةٍ صغيرة ، قال : فاطلبْ لها رجلاً صغيراً .

وقيل لآخر : أتيتك فى حاجة صغيرة ، قال : اذْكُرْها فإنَّ الحُرَّ يقومُ بصغيرِ الحاجات وكبيرها . كان يقال : لا تستعن على حاجةٍ بمن هى طُعْمتُه ، ولا تستعنْ بكذابٍ فإنه يُقرِّبُ البعيدَ ويُباعدُ القريبَ ، ولا تستعنْ على رجلٍ بمن له إليه حاجة .

وقال بعضهم : أصلُ العبادة ألا تسألَ سوى اللّه حاجةً ؛ فلكلِّ أحدٍ فى اللّه عِوضٌ من كلِّ أحدٍ ، وليس لأحدٍ من اللّه عوضٌ بأحد . وقال أبو الأسود :

وإذا طلبتَ إلى كريمٍ حاجةً ... فلقاؤهُ يكفيكَ والتسليمُ
وإذا طلبتَ إلى لئيمٍ حاجة ... فألحَّ فى رفق وأنتَ مُديمُ

وقال آخر :

لا تَطْلُبَنَّ إلى لئيمٍ حاجةً ... واقعدْ فإنك قائمٌ كالقاعدِ
يا خادعَ البخلاء عن أموالهم ... هيهاتَ ، تضربُ فى حديدٍ باردِ

وقال أبو العتاهية :

اقضِ الحوائجَ ما استطعـ ... ـتَ وكُنْ لهمٍّ أخيك فارجْ
فَلَخَيْرُ أيامِ الفتى ... يومٌ قَضَى فيه الحوائجْ

وقال بعضهم : قالوا : مَنْ صبرَ على حاجته ظفرَ بها ، ومَنْ أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له . وقال على بن أبى طالب :

اصبرْ على مَضض الإدلاج فى السَّحَرِ ... وفى الرَّواح إلى الحاجات والبُكْرِ
لا تَضْجَرَنَّ ولا يُعْجزْك مَطْلَبُها ... فالنُّجْحُ يُتْلِفُ بين العَجْزِ والقصر
إنى رأيتُ وفى الأيام تَجْربةٌ ... للصبر عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقَلَّ مَنْ جَدَّ فى شىء تَطَلَّبَهُ ... واستشعرَ الصبرَ إلاَّ فاز بالظفرِ

وقال سفيان : الإلحاحُ لا يصلحُ ولا يَجْمُلُ إلا على اللّه عز وجل . وقال مُورّق العجلى: سألتُ ربى حاجةً عشرين سنة فما انقضتْ لى ولا يَئِسْتُ منها . وقال أبو العتاهية :

فى الناس مَنْ تَسْهُلُ المطالبُ أحـ ـياناً عليه وربما صعبتْ
ما كل ذى حاجةٍ بِمُدْرِكِهَا كم من يدٍ لا تنالُ ما طلبتْ
مَنْ لم يَسَعْهُ الكفافُ معتدلاً ضاقتْ عليه الدُّنَا بما رَحُبَتْ

وقال بعضهم : استعينوا على الناس فى حوائجكم بالتثقيل فذلك نُجْحٌ لكم .

وقال آخر :

منْ عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملولُ

وكتب أبو العتاهية إلى بعض أصحابه يعاتبه فقال :

لئن عدتُ بعد اليوم إني لظالم سأصرفُ نفسى حين تُبْغَي المكارمُ
متى يُنْجِحُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُكَ محجوبٌ ونِصْفُكَ نائمُ

وسئل بعض الحكماء حاجة فامتنع ، فَعُوتِبَ فى ذلك فقال : لأَنْ يَحْمَرَّ وجهى مرة خير من أنْ يَصْفَرَّ مراراً . وقال منصور الفقيه :

مَنْ قال لا فى حاجة مطلوبة فما ظَلَمْ
وإنما الظالم مَنْ يقول لا بعد نعم

وقال آخر :

إنَّ لا بَعْدَ نَعَمْ فاحشَةٌ فبلا فابدأْ إذا خِفْتَ النَّدَمْ
وإذا قلتَ : نَعم فاصبرْ لها بنَجَازِ الوعدِ إنَّ الخُلْفَ ذَمْ

وسبق ما يتعلق بهذا فى الاستئذان ، وقبله فى فصول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الإنكار على ولاة الأمور .

وفى ترجمة عبد اللّه بن عثمان عبدان ، شيخ البخارىِّ ، أنه قال : ما سألنى أحدٌ حاجةً إلا قمتُ له بنفسى ، فإنْ تَمَّ وإلا قمتُ له بمالى ، فإنْ تم وإلا استعنا له بالإخوان ، فإن تم وإلا استعنتُ له بالسلطان .

وينبغى ألا يندمَ مَنْ رُدَّتْ شفاعتهُ ولا يُنادى على مَنْ لم يقبلها ، ويفتح باب العذر . وسيدُ الخلائقِ رسول اللّه ﷺ وهو أعظمُ حقاً وأوْلى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه بإجماع العلماء .

وقد روى البخارى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : كان زوج بريرة عبداً يقال له : مُغيث كأنى أنظرُ إليه يطوفُ خلفها يبكى ودموعه تسيلُ على لحيته ، فقال النبى ﷺ للعباس : « ألا تَعْجَب من حُبِّ مُغيث بريرةَ ، ومن بُغْضِ بريرةَ مغيثاً ؟ » فقال لها النبى ﷺ : « لو راَجَعْتِيه ، فإنه أبو ولدك » قالت : يا رسولَ اللّه ، تأمرنى ؟ قال : « لا ، إنما أشفع » ، قالت : فلا حاجةَ لى فيه [1] . والناسُ فى هذا الأمر ورد شفاعتهم وعدم قبولها متفاوتون جداً كما هو معلوم من أحوالهم ، واللّه أعلم .

قال ابنُ الجوزىِّ رحمه اللّه : كان هارون الرَّقِّىُّ قد عاهدَ اللّهَ ألا يسأله أحدٌ كتابَ شفاعة إلا فعل ،فجاءه رجلٌ فأخبره أنَّ ابنه قد أُسِرَ بالروم وسأله أنْ يكتبَ إلى ملك الروم فى إطلاقه، فقال له : وَيْحَكَ ومن أين يعرفنى ، وإذا سأل عنى قيل : هو مسلم ؛ فكيف يقضى حَقِّى ؟ فقال له السائلُ : اذكر العهدَ مع اللّه تعالى ، فكتبَ له إلى ملك الروم ، فلما قرأ الكتاب قال: مَنْ هذا الذى قد شفعَ إلينا ؟ قيل : هذا قد عاهد اللّه لا يُسألُ كتابَ شفاعة إلا كتبه إلى أىّ منْ كان ، فقال ملكُ الروم:هذا حَقيقٌ بالإسعاف ، أطلقوا أسيره واكتبوا جوابَ كتابِه ، وقولوا له: اكتبْ بكلِّ حاجةٍ تَعْرِضُ فإنا نُشَفِّعُك فيها . ويأتى الكلام فى الكرم والبخل .

وقال الإمام أحمد : حدثنى الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، عن عبدة بن أبى لبابة ، عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن للّه تعالى أقواماً اخْتَصَّهُمْ بالنعم لمنافعِ العباد ما بذلوها ، فإذا منعوها ، نزعها منهم وحَوَّلها إلى غيرهم » [2] . ذكره الحافظ بن الأخضر فيمن روى عن أحمد فى ترجمة أحمد بن محمد بن نصر اللباد أبى نصر ، رواه عن أحمد .

فصل

قال أبو بكر محمد بن عبيد اللّه الخلال : المذكور عن أحمد : إذا سألتم اللّه حاجة فقولوا: فى عافية .

قال سليمان القصير : قلتُ لأحمدَ بن حنبل : يا أبا عبد اللّه ، أيش تقول فى رجلٍ ليس عنده شىءٌ وله قرابةٌ ولهم وليمةٌ ، ترى أنْ يستقرضَ ويهدى لهم ؟ قال : نعم . رواه الخلال.

---

(١) أبو داود فى الطلاق ، ب فى المملوكة تعتق وهى تحت حر أو عبد (٢٢٣١) ، والنسائى فى القضاة ، ب شفاعة الحاكم للخصوم قبل فصل الحكم (٥٤١٧) ، وابن ماجه فى الطلاق ، ب خيار الأمة إذا أعتقت (٢٠٧٥) ، واللفظ لهما .

(٢) ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج ٢/ ١٥ ، وكنز العمال (١٦٠٠٨) ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٥، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه محمد بن حسان السمتى وثقه ابن معين وغيره وفيه لين. . . إلخ » ولم يعزه لأحمد .

فصل فى كراهة الشكوى من المرض والضير واستحباب حَمْد اللّه قبل ذكرهما

قال القاضى أبو الحسين فى « الطبقات » فى ترجمة أبى الفضل عبد الرحمن المتطبب : وقال أبو العباس محمد بن أحمد بن الصلت : سمعتُ عبد الرحمن المُتَطَبِّب ، يعرف بطبيب السنة يقول : دخلتُ على أحمد بن حنبل أعودُه فقلتُ : كيف تَجدُكَ ؟ فقال : أنا بعين اللّه ، ثم دخلتُ على بِشْرِ بن الحارث فقلت : كيف تجدك ؟ قال : أَحمدُ اللّه إليك ، أَجدُ كذا ، أَجدُ كذا ، فقلت : أما تخشى أنْ يكونَ هذا شكوى ؟ فقال : حدثنا المعافى بن عمران ، عن سفيان بن سعيد ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة والأسود قالا : سمعنا عبدَ اللّه بن مسعود يقول : قال رسولُ اللّه ﷺ : « إذا كان الشكرُ قبل الشكوى فليس بشاك » ، فدخلتُ على أحمد بن حنبل فحدثته فكان إذا سألته قال : أحمد اللّه إليك ، أجدُ كذا ، أَجد كذا .

قال الخلال فى عبد الرحمن هذا : كان يَأْنَسُ به أحمد وبشر بن الحارث ويختلفُ إليهما ، وأظنُّ أنَّ أبا الحسين نقل هذا من كتاب الخلال ، وهذا الخبرُ السابقُ متفقٌ عليه .

وقال الشيخ مجد الدين فى « شرح الهداية » : ولا بأس أنْ يُخبرَ بما يَجدُه من ألمٍ ووجعٍ لغرضٍ صحيح لا لقصد الشكوى . واحتج أحمد بقول النبىِّ ﷺ لعائشة لما قالت : وارأساه . قال : « بل أنا وارأساه » (١) .

واحتج ابن المبارك بقول ابن مسعود للنبىِّ ﷺ : إنك لَتُوعَكُ وعكاً شديداً فقال : « أجل إنى أُوعَكُ كما يوعكُ رجلان منكم » . متفق عليه (٢) .

وقال ابن عقيل فى « الفنون » قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾ [الكهف : ٦٢] : يدلُّ على جوازِ الاستراحة إلى نوع من الشكوى عند مساس البلوى ، ونظيره ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ [يوسف : ٨٤] ، ﴿ **مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، « ما زالتْ أكلةُ خيبر تعاودنى » (٣) . انتهى كلام ابن عقيل .

وقال رجلٌ للإمام أحمد : كيف تجدك يا أبا عبد اللّه ؟ قال : بخير فى عافية ، فقال : حُمِمْتَ البارحة ؟ قال : إذا قلتُ لكَ : أنا فى عافية فَحَسْبُكَ لا تُخرجنى إلى ما أكره . قال

---

(١) أحمد ٦/ ١٤٤ ،وابن ماجه فى الجنائز ،ب ما جاء فى غسل الرجل امرأته (١٤٦٥) ، وفى الزوائد: «رجال إسناده ثقات » .

(٢) البخارى فى المرضى ، ب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل (٥٦٤٨) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ، حتى الشوكة يشاكها (٤٥/٢٥٧١) .

(٣) أحمد ٦ / ١٨ ، و البخارى فى المغازى ، ب مرض النبى ﷺ ووفاته (٤٤٢٨) ، والدارمى فى المقدمة ، ب ما أكرم النبى ﷺ من كلام الموتى ١/ ٣٢ ، ٣٣ . كلهم عن عائشة رضى الله عنها .

ابن الجوزى : إذا كانت المصيبةُ مما يمكن كتمانها فكتمانُها من أعمال اللّه الخفية .

وقال ابنُ الجوزىّ فى موضع آخر : شكوى المريض مُخْرِجَةٌ من التوكل . وقد كانوا يكرهون أنينَ المريض ؛ لأنه يترجمُ عن الشكوى ، وذكر هذا النص عن أحمد وقال : فأما وصفُ المريضِ للطبيبِ ما يجدُه فإنه لا يضره . انتهى كلامه .

وقال عبد اللّه : إنَّ أُختَ بشر بن الحارث قالت للإمام أحمد : يا أبا عبد الله ، أنينُ المريض شكوى ؟ قال : أرجو أنه لا يكونُ شكوى ، ولكنه اشتكى إلى اللّه . وذكر غير واحد فى كراهة الأنينِ للمريض روايتين ، ورُوِيت الكراهةُ عن طاووس .

وذكر الشيخ تقى الدين بن تيمية ما ذكر غيره من أنَّ الصبرَ واجبٌ قال : والصبر لا تنافيه الشكوى ، وقال فى مسألة العبودية : والصبرُ الجميلُ صبرٌ بغير شكوى إلى المخلوق ، ثم حكى عن أحمد تركه الأنينَ لما حُكِىَ له عن طاووس كراهته ، ثم قال : وأما الشكوى إلى الخالق فلا تُنافى الصبرَ الجميل . وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٨٤] فإن قيل : هذا لفظ الشكوى ، فأين الصبر ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه شكا إلى اللّه لا منه .

والثانى : أنه أراد به الدعاء ، فالمعنى : يا رب ارحمْ أسفى على يوسفَ ،وقال : قال ابنُ الأنبارىِّ : والحزن ونفور النفوس من المكروه ، والبلاء لا عيبَ فيه ولا مأثم إذا لم ينطق اللسانُ بكلام مُؤَثَّم ولم يشك من ربه ، فلما كان قولُه : يا أسفا شكوى إلى ربِّه ، كان غيرَ مَلُومٍ .

فصل فى شكر النعم والصبر على البلاء

وفوائده فى الالتجاء إلى اللّه

قال ابن عقيل فى « الفنون »: النعم أضيافٌ وقِراها الشكرُ، والبلايا أضياف وقِراها الصبر، فاجتهدْ أنْ ترحلَ الأضيافُ شاكرةً حُسْنَ القِرى ، شاهدة بما تسمع وترى . وقال : مِنْ حسن ظنى به أنه بلغ من لُطْفِه أنْ وصى ولدى إذا كبرت فقال : ﴿ **فَلا** (١) **تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ** ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، فأرجو إذا صرتُ عنده رميماً ألا يعسفَ ، لأنَّ أفعاله تشاكل أقواله .

وقال الشيخ تقى الدين : من تمام نعمة اللّه على عباده المؤمنين أنْ يُنْزِلَ بهم من الشدة والضُّرِّ ما يُلْجِئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصينَ له الدين ، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه ، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصلُ لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذَوْقِ طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف ، أو الجدب أو الضر ، وما يحصلُ لأهلِ التوحيد المخصلين للّه الدين فأعظم من أنْ يُعبِّرَ عنه مقال ، ولكل

(١) فى المخطوطة : « ولا » وهو خطأ .

مؤمن من ذلك نصيبٌ بقدرِ إيمانه ، ولهذا قيل : يا بن آدم ، لقد بورك لك فى حاجة أكثرتَ فيها من قرعِ بابِ سيدك . وقال بعض الشيوخ : إنه ليكونُ لى إلى اللّه حاجةٌ فأدعوه فيفتح لى من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحبُّ معه أن يعجل قضاء حاجتى أن ينصرف عنى ذلك؛ لأن النفس لا تريدُ إلا حظها ، وقد قال ﷺ : « ذاق طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » (١).

وقال أيضاً : « وجد طعم الإيمان » (٢) فوجود المؤمن حلاوةَ الإيمان فى قلبه وذوق طعمه أمرٌ يعرفه مَنْ حصل له هذا الوجد وهذا الذوق . فالذى يحصل لأهل الإيمان عند تجريد التوحيد يجذب قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه ، بحيث يكونون حنفاء لله مخلصين له الدين ـ إلى أن قال ــ وهذا هو حقيقة الإسلام الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه ، والله أعلم .

فصل فى الصبر والصابرين وفوائد المصائب والشدائد

قال الله تعالى :

﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة :١٥٥ ــ ١٥٧] .

وقال تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] إلى غير ذلك من الآيات .

وَصحَّ عنه عليه السلام الأمر بالصبر فى أحاديث . وروى أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أم سلمة : « ما منْ عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول : ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ اللهم أجْرِنى فى مصيبتى واخلفْ لى خيراً منها ، إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها»(٣).

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد : « ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وما أعطىَ أحدٌ من عطاءٍ خَيْرٌ وأوسع من الصبر »(٤) وخير مرفوع خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو خير .

---

(١) أحمد ١ / ٢٠٨ ، ومسلم فى الإيمان ، ب الدليل على أن من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، فهو مؤمن ، وإن ارتكب المعاصى والكبائر (٣٤/٥٦) كلاهما عن العباس بن عبد المطلب.

(٢) أحمد ٢ / ٤٢٠ عن أبى هريرة .

(٣) أحمد ٦ / ٣٠٩ ، ومسلم فى الجنائز ، ب ما يقال عند المصيبة (٩١٨ / ٣ ، ٤) ، وابن ماجه فى الجنائز، ب ما جاء فى الصبر على المصيبة (١٥٩٨) .

(٤) البخارى فى الزكاة ، ب الاستعفاف عن المسألة (١٤٦٩) ، ومسلم فى الزكاة ، ب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣ / ١٢٤) .

وروى « خيراً » .

وقال عليه السلام : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسراً » (١).

فإذا عَلِمَ العبدُ أنه وما يملكه لله سبحانه حقيقةً ، لأنه أوجده من عَدَم ويعدمه أيضاً ويحفظه فى حال وجوده ،ولا يتصرف فيه العبد إلا بما يتاح له،وأن مرجعه إلى الله ــ ولابد ــ فرداً ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْدًا** ﴾ [مريم: ٨٠] . وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ [الأنعام :٩٤] .

وأنَّ ما أصابَهُ لم يكن لِيُخْطِئَهُ ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال عليه السلام (٢)، وكما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣] .

وأن الله لو شاء جعل مصيبته أعظم مما هى ، وأنه إن صبر أخلف الله عليه أعظم من فوات مصيبته ، و أن المصيبة لا تختص به فيتأسى بأهل المصائب ، ومصيبة بعضها أعظم ، وأن سرور الدنيا مع قلته وانقطاعه منغص .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لكل فرحة ترحة (٣)، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً .

وقال ابن سيرين رحمه الله : ما كان ضحك قط إلا كان بعده بكاء ، وقد شاهد الناس من تغير الدنيا بأهلها فى أسرع ما يكون العجائب .

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس ، وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حِبرة إلا ملأها عبرة .

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يوماً وهى فى عزها فقيل : ما يبكيك ، لعل أحداً آذاك ؟ قالت : لا ، ولكن رأيت غَضارة فى أهلى وقلّما امتلأت دار سروراً إلا امتلأت حزناً . والغضارة : طيب العيش تقول : بنو فلان مغضورون ، وقد غضرهم الله ، وإنهم لفى غضارة

---

(١) أحمد ١ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ عن ابن عباس .

(٢) أحمد ٥ / ١٨٢ ، ١٨٣ عن ابن الديلمى ، وابن ماجه فى المقدمة ،ب القدر (٧٧) .

(٣) التَّرح : نقيض الفرح ، وقد تَرِحَ تَرَحا وتَتَرَّح وتَرَّحه الأمر تتريحاً أى : أحزنه . انظر : اللسان ، مادة «ترح».

من العيش ، وفى غضراء من العيش أى : فى خصب وخير . قال الأصمعى : لا يقال : أباد الله خضراءهم ، ولكن : أباد الله غضراءهم أى : هلك خيرهم وغضارتهم .

وقالت حرقة أيضاً : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس ، إنا نجد فى الكتب : إنه ليس من أهل بيت يعيشون فى حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة ، وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقة نَتنصَّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها ... تقلِّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

تنصَّف ، أى: خدم .

وعلم العبد أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها ، وأنه يسر عدوه ويسىء محبه ، وإن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها ومنه بيت الحمد الذى يبنى له فى الجنة على حمده واسترجاعه .

وفى البخارى عن أبى هريرة مرفوعاً : « يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صَفِيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » (١).

وفى الترمذى ــ وقال : غريب ــ عن جابر مرفوعاً : « يود ناسٌ يوم القيامة أن جلودهم كانت تُقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء »(٢) .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة مرفوعاً : « ما يصيبُ المسلمَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ، ولا هَمٍّ ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غَمٍّ حتى الشوكة يشاكها إلا كَفَّرَ الله من خطاياه »(٣) .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، أىُّ الناس أشَدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياءُ ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ من الناس ، يُبْتَلى الرجلُ على حسب دينه ، فإنْ كان فى دينه صلابةٌ زِيدَ فى بلائه ، وإن كان فى دينه رِقَّة خُفِفَ عنه ، وما يزالُ البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً :« لا يزال البلاءُ بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يَلْقَى اللهَ وما عليه خطيئةٌ »(٤) صححهما الترمذى ، وروى الثانى مالك وأحمد (٥)، ورويا أيضًا والبخارى عن أبى هريرة مرفوعاً : « مَنْ يُرِدْ الله به خيراً يُصِبْ

---

(١) البخارى فى الرقاق ، ب العمل الذى يبتغى به وجه الله (٦٤٢٤) .
(٢) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى ذهاب البصر (٢٤٠٢) .
(٣) البخارى فى المرضى ، ب ما جاء فى كفارة المرض (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧٣ / ٥٢) .
(٤) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٨ ، ٢٣٩٩) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .
(٥) أحمد ٢ / ٢٨٧ ، ٤٥٠ ، ومالك فى موطئه فى الجنائز ، ب الحسبة فى المصيبة ١ / ٢٣٦ (٤٠) .

منه »[1] .

وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « عَجَباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خيرٌ : إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ صَبَرَ فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » رواه مسلم [2].

ولأحمد عن أنس مرفوعاً : « عجبتُ للمؤمن ، إن الله تبارك وتعالى لم يَقْضِ له قضاءً إلا كان خيراً له » [3].

وعن أبى سعيد مرفوعاً : « أشَدُّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، إنْ كان أحدهم ليفرحُ بالبلاء ، كما يَفرحُ أحدكم بالرخاء » مختصر من ابن ماجه [4].

وعن شداد مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : إذا ابتليتُ عبداً من عبادى مؤمناً ، فحمدنى على ما ابتليتُه ، فإنه يقومُ من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا » رواه أحمد [5].

وعن محمد بن إسحاق ، عن رجل من أهل الشام يقال له : منظور ، عن عمه عامر مرفوعاً: « إن المؤمن إذا أصابه سقمٌ ثم أعفاه الله منه كان كفارةً لما مضى من ذنوبه وموعظةً له فيما يستقبل ، وإن المنافقَ إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عَقَلَهُ أهله ثم أرسلوه فلم يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ ولِمَ أرسلوه » رواه أبو داود [6].

ولمسلم من حديث عائشة : « ما من مسلم يُشَاكُ شوكةً فما فوقَها إلا رفعه الله بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة »[7]، وما كفى أنْ فات حتى عصى بذلك ؛ لأنه أسخط ربه ، وفوات لذة عاقبة الصبر واحتسابه أعظم مما أصيب به لو بقى ، وعلم أن فى الله خلفاً ودركاً ؛ فرجا الخلف منه .

وقد روى الشافعىُّ : أنَّ النبىَّ ﷺ لما توفى سمعوا قائلاً يقول : « إنَّ فى الله عزاءً من كلِّ مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كُلِّ ما فات ، فبالله فَثِقُوا ، وإياه فارْجُوا ، فإنَّ المُصَاب مَنْ حُرِمَ الثواب ، وعلم العبد أنَّ حظه من المصيبة ما يُحدِثُه من خيرٍ وشر »[8].

---

(١) أحمد ٢ / ٢٣٧ ، والبخارى فى المرضى ، ب ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٥) ، ومالك فى موطئه فى العين ، ب ما جاء فى أجر المريض ٢ / ٩٤١ (٧).

(٢) مسلم فى الزهد ، ب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩ / ٦٤) .

(٣) أحمد ٣ / ١٨٤ .

(٤) ابن ماجه فى الفتن ب الصبر على البلاء (٤٠٢٤) ،قال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٥) أحمد ٤ / ١٢٣ .

(٦) أبو داود فى الجنائز ، ب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٨٩) .

(٧) مسلم فى البر والصلة ،ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧٢ / ٤٦) .

(٨) الشافعى فى الأم فى الجنائز ، ب القول عند دفن الميت ١/٢٧٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده.

وعن محمود بن لبيد مرفوعاً : « إنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضىَ فله الرضا ، ومَنْ سخط فله السخط »[1] إسناده جيد ، وهو إسناد حديث : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً حَماهُ الدنيا »[2] ولذاك إسناد آخر . قال البخارى وغيره فى محمود : له صحبة ، وقال أبو حاتم وغيره : لا صحبةَ له ، رواه الترمذى وأحمد وزاد : « ومَنْ جزع فله الجزع »[3] .

وعن أنس مرفوعاً : « إنَّ عظم الجزاءِ مع عِظَمِ البلاء ، وإنَّ الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

وعنه أيضاً : « إذا أراد الله بعبد خيراً عَجَّلَ له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه حتى يوافى به[4] يومَ القيامة » رواهما الترمذى[5] ، وقال : حسن غريب ، وروى ابن ماجه الأول[6] ، وروى أحمد الثانى من حديث عبد الله بن مغفل [7]. وعلم أنَّ آخرَ أمده الصبر وهو مثاب .

وفى « الصحيحين » من حديث أنس : « إنما الصبرُ عند الصدمة الأولى »[8] .

وقال الأشعث بن قيس : إنك إنْ صبرتَ إيماناً واحتساباً وإلا سلوت سُلُو البهائم ، وعلم أنَّ الذى ابتلاهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الراحمين ليمتحنَ صَبْرَهُ ويسمعَ تَضَرُّعَهُ ويخوفه ، قال تعالى :

﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿**وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف : ٤٨] .

قال الشيخ عبد القادر : يا بنى ، المصيبةُ ما جاءت لتهلك ، وإنما جاءت لتمتحنَ صبركَ وإيمانك ، يا بنى ، القَدَرُ سَبُعٌ ، والسَّبُعُ لا يأكل المَيْتَةَ ؛ فالمصيبةُ كِيرُ العبد ، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً ، كما قيل :

سَبَكْنَاهُ ونَحْسَبُهُ لُجَيْناً ... فأبدى الكيرُ عن خَبَثِ الحَدِيدِ

---

(١) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) ، وابن ماجه فى الفتن ، ب الصبر على البلاء (٤٠٣١) كلاهما عن أنس .

(٢) الترمذى فى الطب ، ب ما جاء فى الحمية (٢٠٣٦) .

(٣) أحمد ٥ / ٤٢٨ ، والترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) .

(٤) فى أ ، ر ، ط : « ربه » ، والمثبت من الترمذى .

(٥) الترمذى فى الزهد ، ب فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) .

(٦) ابن ماجه فى الفتن ، ب الصبر على البلاء (٤٠٣١) .

(٧) أحمد ٤ / ٨٧ .

(٨) البخارى فى الجنائز ، ب الصبر عند الصدمة الأولى (١٣٠٢) ، ومسلم فى الجنائز ، ب فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٢٦ / ١٤) .

اللجين : الفضة جاء مُصَغَّراً مثل الثُريَّا وكُمَيْت .

وعلم أنه لولا المصائبُ لبطرَ العبدُ وعجب ، وبَغَى وطغى ، فيحميه بها من ذلك ، ويُطَهّره مما فيه ، فسبحانَ مَنْ يَرْحم ببلائه ، ويبتلى بنعمائه كما قيل :

قد ينعمُ اللّه بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ويبتلى اللّه بعضَ القومِ بالنعمِ

وعَلِمَ أنَّ مرارةَ الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس ، ولهذا قال عليه السلام : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (١) .

وقال : « حُفَّتْ الجنةُ بالمكاره وحُفَّت النارُ بالشهوات » (٢) . ومعلوم أنَّ العاقلَ مَن احتمل مرارةَ ساعة لحلاوة الأبد ، وذُلَّ ساعَة لعزِّ الأبد ، هذا منْ لُطْف اللّه به حتى نظر فى العواقب والغايات ، والناس ــ إلا مَنْ عصم اللّه ــ آثروا العاجلَ لمشاهدته وضعف الإيمان .

وعلم أنه يُحبُّ ربه وأن المحب إن أسخطه فهو كاذب فى محبته ، ولهذا كان عمران بن حصين رضى اللّه عنه يقول فى مرضه: أحَبُّهُ إلىَّ أحَبُّهُ إليه. وكذا أبو العالية ، وقال أبو الدرداء رضى اللّه عنه : إن اللّه إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وعلم أنَّ مراتبَ الكمال مَنُوطَةٌ بالصبر والعكس بالعكس ، وأقل الأحوال ألا يتّهم رَبَّهُ فى قضائه له كما روى أحمد ، حدثنا حسن ، حدثنا ابنُ لَهيعَة ، عن الحارث بن يزيدَ ، عن على ابن رباح أنه سمع جُنَادَةَ بن أبى أمية يقول : سمعتُ عبادة بن الصامت يقول : إن رجلاً أتى النبىَّ ﷺ فقال : يا نبىَّ اللّه ، أىُّ العملِ أفضلُ ؟ قال : « الإيمانُ باللّه وتصديقٌ به وجهادٌ فى سبيله» ، قال : أريدُ أهونَ من ذلك يا رسولَ الله ، قال : « السماحة والصبر » قال : أريد أهون من ذلك يا رسول الله ، قال : « لا تَتَّهم اللّهَ فى شىءٍ قُضىَ لك»(٣)، ابن لهيعة فيه كلام مشهور .

وعن محمد بن خالد السلمى، عن أبيه عن جده مرفوعاً: « إنَّ العبدَ إذا سَبَقَتْ له من اللّه منزلةٌ لم يبلغها ، ابتلاه اللّه تعالى فى جسده أو فى ماله أو فى ولده ثم صَبَّرَهُ على ذلك حتى يُبلِّغَهُ المنزلةَ التى سَبَقَتْ له من اللّه عز وجل » رواه أحمد وأبو داود (٤) .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٣ ، ومسلم فى الزهد ، ب فى الزهد والرقائق (٢٩٥٦/١) ، والترمذى فى الزهد ، ب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١١٣) كلهم عن أبى هريرة .

(٢) البخارى فى الرقاق ، ب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧) ، وأبو داود فى السنة ، ب فى خلق الجنة والنار (٤٧٤٤) ، والنسائى فى الأيمان ، ب الحلف بعزة الله تعالى (٣٧٦٣) كلهم عن أبى هريرة ، ومسلم فى صفة الجنة ، باب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢/١) ، والترمذى فى صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (٢٥٥٩) كلاهما عن أنس ، واللفظ لهما .

(٣) أحمد ٥/ ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٤) أحمد ٥/ ٢٧٢ ، وأبو داود فى الجنائز ، ب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٩٠) .

وعن شيخ من بنى مرة ، عن بلال بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى مرفوعاً : «لا يصيبُ المؤمنَ نكبةٌ فما فوقَها أو دونَها إلا بذنبٍ ، وما يعفو اللّهُ عنه أكثرُ » رواه الترمذى وقال: غريب (١) .

فإذا علم العبدُ هذه الأمور ونظرَ فيها وتأمَّلَها ، صبر واحتسبَ ، وحصلَ له من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه . والناسُ فى هذا متفاوتون كغيره من الأمور . وسيأتى آخرُ فصولِ التداوى (فصل فى داء العشق) له مناسبةٌ وتَعَلُّقٌ بهذا واللّه أعلم ، وليس بجيدٍ ما أنشده محمد بن داود الظاهرى لنفسه :

يقولــون لــى فــى الصبــر رَوحٌ وراحــةٌ ... ولا عهــدَ لــى بالصبر مُـذْ خُلِقَ الحُبُّ
ولاشك أنَّ الصبرَ كالصبر [طَعْمُهُ](٢) ... وأنَّ ســبيلَ الصبــر مُمْتَنِــعٌ صَعبُ

وقد قال أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه « السر المصون » : اعلم أن من طلب أفعاله من حيث العقل المُجَرَّد فلم يجد ، يعترض . وهذه حالةٌ قد شملت خَلْقاً كثيراً من العلماء والجُهَّال، أولهم إبليس ، فإنه نظر بمجرد عقله ، فقال : كيف يفضل الطين على جوهر النار ؟ وفى ضمن اعتراضه أنَّ حكْمتَكَ قاصرةٌ وأنَّ رأيى أجود ، فلو لقيتُ أنا إبليس كنتُ أقولُ له : حَدِّثنى عن فَهْمكَ هذا الذى رفعتَ به أمرَ النار على الطين : أهو وَهَبَهُ لكَ أم حصل لك من غير موهبته ؟ فإنه سيقول : وَهَبه لى ، فأقول : أفيهب لك الفهم الذى لا تدركه حكمته ، فترى أنتَ الصوابَ ويرى هو الخطأ ؟ وتَبعَ إبليسَ فى تغفيله واعتراضه خَلْقٌ كثير مثل : ابن الرَّاوَنْدِىِّ والمَعَرِّى ، ومن قوله :

إذا كانَ لا يَحْظَى برزقك عاقلٌ ... وترزق مجنوناً وترزق أحمقــا
فلا ذَنْبَ يا رب السَّماء على امرئ ... رأى منكَ مـا لا يَشْتهى فتزندقا

وكان أبو على بن مقلة (٣) يقول :

أيا رب تخلق أقمــارَ ليــلٍ ... وأغصــانَ بــان وكثبــانَ رمــل
وتُبْــدعُ فى كـل طَرْفٍ بســحر ... وفى كـل قَـدٍّ رشيقٍ (٤) بشـكل

---

(١) الترمذى فى تفسير القرآن ، ب ومن سورة ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾ (٣٢٥٢) .
(٢) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .
(٣) هو أبو على محمد بن على بن حسن بن مقلة ، الوزير الكبير ، ولد بعد سنة سبعين ومائتين ، روى عن أبى العباس ثعلب ، وأبى بكر بن دريد ، وروى عنه عمر بن محمد بن سيف ، وأبو الفضل محمد بن الحسن بن المأمون وغيرهما ، له علم بالإعراب وحفظ للغة ، توفى فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة . [سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٢٤ ــ ٢٣٠] .
(٤) فى المخطوطة : « فى كل قدر سبق » ، والمثبت من ر .

وتَنْهى عبادكَ أنْ يعشقوا أيا حاكمَ العَدْلِ،ذا حكم عدل؟

وكان أبو طالب المكى يقول : ليس على المخلوقِ أضَرُّ من الخالق . قال ابن الجوزى : دخلت على صدقة بن الحسين الحداد وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض ، وكان عليه جَرَبٌ، فقال : هذا ينبغى أن يكون على جملٍ لا علىَّ .

وكان يتفقده بعض الأكابر بمأكولٍ فيقول : بَعَثَ لى هذا على الكبر وقتَ لا أقدرُ آكله . وكان رجلٌ يصحبنى قد قاربَ ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم فمرض واشتد به المرض ، فقال لى : إنْ كان يريدُ أنْ أموتَ فيميتنى ، فأما هذا التعذيب فما له معنى . واللّه لو أعطانى الفردوس كان مكفوراً .

ورأيتُ آخر يَتزيَّا بالعلم إذا ضاق عليه رِزْقُه يقول : أَيشٍ هذا التدبير ؟ وعلى هذا كثيرٌ من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا ، وربما قالوا : ما نريد نصلى . وإذا رأوا رجلاً صالحاً يؤذى قالوا : ما يستحق ، قَدْ جافى القَدَرَ ! وكان قد جرى فى زماننا تَسَلُّطٌ من الظَّلَمَةِ ، فقال بعضُ مَنْ يتزيَّا بالدين : هذا حكم بارد . وما فهمَ ذاكَ الأحمقُ أن اللّه يملى للظالم .

وفى الحمقى مَنْ يقول : أىُّ فائدة فى خَلْقِ الحيات والعقارب ؟ وما علم أن ذلك أنموذجٌ لعقوبة المخالف . وبلغنى عن بعض مَنْ يتزيَّا بالعلم أنه قال : اشتهيتُ أنْ يجعلنى وزيراً فأدبر، وهذا أمرٌ قد شاع ، فلهذا مددتُ النَّفَسَ فيه .

واعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً ، وعلا على الخالق بالتَّحكُّم عليه ، وهؤلاء كلهم كَفَرَةٌ ؛ لأنهم رأوا حِكْمةَ الخالقِ قاصرةً . وإذا كانَ تَوَقُّفُ القلَبِ عن الرضا بحكم الرسول ﷺ يخرجُ عن الإيمان. قال تعالى : ﴿ **فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا ممّا قضيت ويسلّموا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] ، فكيف يَصحُّ الإيمانُ مع الاعتراض على اللّه تعالى ؟!

وكان فى زمن ابن عقيل رجلٌ رأى بهيمةً على غاية من السقم فقال : وا رحمتى لك ، وا قلَّةَ حيلتى فى إقامة التأويلِ لمُعَذِّبك . فقال له ابنُ عقيل : إن لم تقدر على حملِ هذا الأمرِ لأجلِ رِقَّتكَ الحيوانية ، ومناسبتك الجنسية ، فعندكَ عقلٌ تعرف به تَحكُّمَ الصانع ، وحكمتُه تُوجبُ عليكَ التأويل ، فإنْ لم تجد استطرحتَ لفاطرِ العقلِ ، حيث خانكَ العقلُ عن معرفة الحِكْمة فى ذلك . واعلم أنَّ رضا العقلِ بأفعالِ الخالقِ سبحانه وتعالى أوفى العبادات وأشدها وأصعبها . ثم ذكر كلام ابن عقيل وفيه : وقد نبهنا على العجز عن ملاحظة العواقب فقال تعالى : ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة : ٢١٦] .

ففى عقولنا قُوةُ التسليم وليس فيها قدرةُ الاعتراض عليه . وقد يدعو الإنسانُ فلا يُجاب فيندم ، وهو يُدعى إلى الطاعة فيتوقف . فالعجب من عبيدٍ يقتضون الموالىَ اقتضاء الغريم ، ولا يقتضون أنفسهم بحقوقِ الموالى .

قال ابن الجوزى : وَمَنْ تأمل دقائقَ حكمته ومحاسنَ صفاته أخرجه حُبُّهُ إلى الهيمان فيه ، فإنَّ المعانىَ المُستَحْسَنَة تُحَبُّ أكثر من الصور ؛ ولهذا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضى اللّه عنهم لمعانيهم لا لصورهم ، فكيف لا تقع المحبة المختصة بالكامل المُنَزَّه عن نقص ؟ فوا أسفا للغافلين عنه ، وواحسرتا للجاهلين به . وقال ابنُ الجوزى قبل ذلك : مَنْ نظر إلى أفعاله بمجرد العقل أنكر ، فأما مَنْ علم أنه مالكٌ وحكيم وأن حكمته قد تخفى ، سَلَّمَ لِمَا لم يعلمْ عِلَّتَهُ ، فأفعالُه مسلمةٌ إلى حكمته .

وقد قال بعضُ الحكماء : مَنْ لم يحترز بعقله منْ عقله ، هَلَكَ بعقله . وهذا كلامٌ فى غاية الحسن ، فإنَّا إذا قلنا للعقل : هو حكيم قال : لا شَكَّ فى ذلك لأنى قد رأيتُ عجائبَ أفعاله المحكمة فعلمتُ أنه حكيم ، فإذا رأيتُ فيما يصدر ما ظاهرُهُ ينافى الحكمةَ نسبتُ العجزَ إلىَّ ولو لم يكن فى ذلك إلا أنَّ المرادَ تسليم العقول لما ينافيها ، وذلك عبادة العقول . قال : وصار هذا كما خَفِىَ عن موسى حكمةُ فِعْلِ الخضرِ ، وقد يخفى على العامى ما يفعله الملك ، فقد قال المتنبى :

يَدِقُّ عن الأفكارِ ما أنتَ فاعلُ

وقال ابن عقيل فى « الفنون » : الواحد من العوام إذا رأى مراكبَ مُقَلَّدة بالذهبِ والفضة، ودوراً مُشَيَّدة مملوءة بالخدم والزينة ، قال : انظر إلى ما أعطاهم مع سوءِ فعالهم ، ولا يزال يلعنهم ويذم مُعْطيهم ، ويُشفق حتى يقول : فلان يصلى الجماعاتِ والجمَعَ ولا يذوقُ قطرةَ خمرٍ ، ولا يؤذى الذَّرَّ ، ولا يأخذ ما ليسَ له ، ويؤدى الزكاةَ إذا كان له مال ، ويحج ويجاهد، ولا ينال خلة بقلة . ويظهر الإعجاب كأنه ينطقُ عن تَخَايله أنه لو كانت الشرائع حقاً لكان بخلاف ما نرى ، وكان الصالح غنياً والفاسق فقيراً ، ما ذاك إلا لأنه لَحظَ أنَّ اللّه أعطى هذا أموالَ الأيتامِ والوُقوفَ ، بأنْ يأكل الربا وبفَاسد العقود ، وهذا افتئاتٌ وتجوز وتسخط فى غير موضعه . فإنَّ للّه كتاباً قد مَلأَه بالنهى وحرمانَ أخذ المالِ الحرام وأكله بغيرِ حق . فلو كان منصفاً لقال له : تَدَبَّرْ ، هذا كتابُ اللّه مملوءٌ بالنهى والوعيد فصار الفريقان ملعونين : هذا بكفره وهذا بارتكاب النهى .

ومن الفساد فى هذا الاعتقاد أنه لا يبقى فى العقل ثقةٌ إلى دلالَة قامتْ على شريعة أو حكم ، فإنَّ ينبوع الثقة ومصدرها إنما هو من قبيل أنه سبحانه لا يؤيد غير الصادق ولا يلبس الحق بالباطل . فإذا لم تستقر هذه القاعدة فلا ثقة .

وقال أيضاً : إذا تأمل المتدينُ أفعالَ الخَلْقِ فى مقابلة إنعام الحَقِّ استكثر لهم شَمَّ الهواء ، واستقلَّ لهم من اللّه سبحانه أكثر البلاء ، إذا رأى هذه الدار المزخرفة بأنواع الزخاريف ، المعدة لجميع التصاريف واصطباغاً وأشربةً وأدوية ، وأقواتاً وإداماً وفاكهةً ، إلى غيرِ ذلك من العقاقير، ثم إرخاء السحاب بالغيوث فى زمنِ الحاجات ، ثم تطييب الأمزجةِ وإحياء النبات ، وخلق هذه الأبنيةِ على أحسن إتقان ، وتسخير الرياح والنسيم المُعَدّ للأنفاس ، إلى غير ذلك من النعم ، ثم نعمة العقل والذهن ثم سائر الآيات الدالة على الصانع ، ثم إنزال الكتب التى تحثُّ على الطاعاتِ وتردعُ عن المخالفة ، ثم اللطف بالمكلّف ، وإباحة الشرك مع الإكراه ، وأمر بالجمعة فضايقوه فى ساعة السعى بنفس ما نهى عنه من البيع فى أبواب العبادات، وعَظَّمُوا كل ما هَوَّنَهُ، وارتكبوا كل ما هَوَّلَهُ حتى اسْتَخَفُّوا بحرمةِ كتابه ، فأنا استقلُّ لهم كل محنة .

وقال أيضاً : لا تتم الرَّجْلَةُ فى العبدِ حتى يكونَ فى مقامِ اختلال أحواله ، واشتطاط أخلاطه وأفراحه، وتسلط أعدائه، ثابتاً بثبوت المتلقى والمتوقى ؛ فيتلقى النِّعَمَ بالشكرِ لا بالبطر، متماسكاً عن تحرك الرعن ، وعند المصائب مستسلماً ناظراً إلى المبتلى بعينِ الكمال ، وعند اشتطاط الغضب متلقياً بالحكم ، وعند الشهوات مستحضراً للوعد والوعيد ، فسبحان مَنْ كمَّن جواهرَ الرجال فى هذه الأجساد ، ثم أظهرها بابتلائه ليعطىَ عليها جزيلَ ثوابه ، ويجعلها حجة على بقية عباده .

وقال : زنوا أنفسكم : من المبادى ماء وطين ، وفى الثوانى ماء مهين ، وفى الوسط عَبيدٌ محاويج ، لو حبسَ عنكم نسيم الهواء لأصبحتم جِيَفاً ، ولو مُكِّنَتْ منكم البقوق فضلا عن السباع لأكلتكم ، كونوا مُتَعَرِّفينَ لا عارفين .

وقال : لنا عندكَ ذخائرُ وودائع ، باللّه لا تَضَعْهَا فى الترهات ، ودموعٌ ودماء ونفوس ، باللّه لا تُجْرِى الدموعَ إلا على ما فاتَ ويفوت ، ولا تُرِق الدماءَ ، إلا فى مكافحة الأعداء ، وإعلاء كلمتنا ، وأنفاسٌ من نفائس الذخائر ، فَبِحَقِّنَا لا تتنفس الصعداء إلا فى الشوقِ إلينا ، والتأسف علينا ، كم نَخْلَعُ عليكَ خلعةً نفيسةً تبذلها فى الأقذار ، وتُخْلِقُهَا فى خدمة الأغيار ، اشتغلتَ بالصور ، شُغْلَ الأطفال باللعب ، فاتتك أوقاتٌ لا تُتَلافى ــ إلى أن قال ــ فإنْ كسرنا عليك لعبةً مثل أنْ نسلبك ولداً منحناه ، أخذتَ تُضيعُ الدموعَ وتخرقُ الجيوب ، وا أسفاً على أوقات فاتت ، أما رأيتَ المتداركين : هذا يقول : هلكتُ وأهلكتُ ، وهذا يقول : زنيتُ فطهرنى ، زاهداً فى مصاحبة نفس خائنة فيما عاهدتْ ، وصاحبُ الشرع يقيم لها التأويل ، ويقول : « لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ» (١) وذاك مُصِرٌّ على التَّشَفِّى من النفسِ المخالفة للحق ؛ أَتُرَاهُ سَلَّطَ هذه البلاوى إلا لِيُظْهِرَ هذه الجواهرَ فى الصبرِ عليه والغيرة ؟ تُرى لو دامَ الخليلُ والذبيحُ فى كتم

(١) أحمد ١/٢٣٨ ،والبخارى فى الحدود ، ب هل يقول الإمام للمقر : لعلك لمست أو غمزت ؟ (٦٨٢٤).

العزم ، كان وُجِدَ لأحد قَدَمٌ ــ إلى أن قال ــ فصار الولدُ كالشاة المعدَّة للذبح ، أخجلَ واللّه هذا الجوهرُ الذى أظهره الامتحانُ ملائكةَ الرحمن : ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

أين التسبيح من عزم الذابح وبذل الذبيح ؟ لقد تركتْ هذه المكارمُ رؤوسَ الكُلِّ مُنكَّسَةً خجلاً ببخلهم شاةً من أربعين ، ونصفَ دينارٍ من عشرين . وتعجبُ من قول الدبوسى الحنفى: إن الدنيا دار جزاء لحق الآدمى ، فأما لِحَقِّهِ فيتأخر إلى الآخرة وإن هذا خلاف العقل والشرع . انتهى كلامه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] .

وقيل لأبى سليمان الدارانى : ما بالُ العقلاء أزالوا اللوم عمن أساءهم ؟ قال : إنهم علموا أن اللّه إنما ابتلاهم بذنوبهم ، وقرأ هذه الآية .

ولابن ماجة والترمذى من حديث أنس: «كُلُّ بنى آدم خَطَّاءٌ وخيرُ الخطائين التوابون»(١).

ولأحمد عن ابن عباس مرفوعاً : « ما مِنْ أحدٍ إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئةٍ ليس يحيى ابن زكريا » (٢) .

وللترمذى وقال : حسن صحيح، عن ابن عباس، ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ** ﴾ [النجم : ٣٢] ، قال : قال النبى ﷺ :

«إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وأى عبدٍ لكَ لا ألما»(٣)

فصل فى عيادة المريض

تُستَحَبُّ عيادةُ المريض . قال بعض الأصحاب : وتُكْرَهُ وسطَ النهار ، نص عليه . وقال الأثرم : قيل لأبى عبد اللّه : فلانٌ مريض وكان عند ارتفاع النهار فى الصيف ، فقال : ليس هذا وقت عيادة . قال القاضى : وظاهرُ هذا كراهيةُ العيادة فى ذلك الوقت . انتهى كلام [الأصحاب] (٤) .

والأوْلى أن يقال : تُستحبُّ العيادة بكرةً أو عشية لما فيه من تكثيرِ صلاةِ الملائكة . وقال

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٤٩ (٢٤٩٩) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر التوبة (٣٢٥١) .
(٢) أحمد ١ / ٢٩٢ .
(٣) الترمذى فى تفسير القرآن ، ب من سورة النجم (٣٢٨٤) ، وقال « هذا حديث حسن صحيح غريب » .
(٤) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .

المروذى : عُدتُ مع أبى عبد اللّه مريضاً بالليلِ وكان فى شهر رمضان ، ثم قال لى : فى شهرِ رمضانَ يُعَادُ بالليلِ .

وروى أبو داود عن سهل بن بكار ، عن أبى عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أم العلاء عمة حزام بن حكيم الأنصارى قالت : عادنى رسولُ اللّه ﷺ وأنا مريضة فقالَ : «أبشرى يا أمَّ العلاء فإنَّ مَرَضَ المسلمِ يُذْهِبُ اللّهُ به خطاياه كما تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الحديدِ »(١) حديث حسن . وأنشد الشافعى رضى اللّه عنه :

مَرِضَ الحبيبُ فَعُدْتُهُ ... فمرضتُ من حَذَرِى عليه
فأتى الحبيبُ يعودُنى ... فَشُفِيتُ من نظرى إليه

فصل فى التقاط ما يقع على الأرض

قال الحسن بن عبد الوهاب الوَرَّاقُ : كان أبى إذا وقعتْ منه قطعةٌ فأكثر لا يأخذُها ولا يأمرُ أحداً أنْ يأخذَها ، فقلت له يوماً : يا أبتِ ، الساعةَ سقطتْ منكَ هذه القطعةُ فَلمَ لا تأخذها ؟ فقال : رأيتها ، ولكنى لا أُعَوِّدُ نفسى أخْذَ شىءٍ من الأرضِ كانَ لى أو لغيرى . وهذا رأىٌ من عبد الوهَّاب رحمه اللّه والأوْلى أخذ ما يجب التقاطه لما فيه من حصول النفع له أو لغيره من غير ضرورة ، وكذا أخذ ما وقع منه ، بل يُنْهَى عن تَرْكِه لما فيه من إضاعة المال .

فصل فى أدبِ الصُّحبةِ واتقاء أسباب الملل والقطيعة

قال على بن المدينى : قال لى أحمد بن حنبل : إنى لأُحبُّ أنْ أصْحَبَكَ إلى مكة فما يمنعنى من ذلك إلا أنى أخافُ أملّك أو تملّنى ، فلما ودعته قلتُ : يا أبا عبد اللّه ، تُوصينى بشىءٍ ؟ قال : نعم ، أَلْزِمِ التقوى قلبك ، واجعل الآخرةَ أمامكَ .

وروى الخلال فى « الأدب » : عن مكحول قال : قلت للحسن : إنى أريدُ أن أخرج إلى مكة ، قال : فلا تصحب رجلاً يكرم عليك ، فينقطع الذى بينك وبينه .

وعن مجاهد قال : قلت لصديق لى من قريش : تعالَ أواضعكَ الرأىَ ؛ فانظر أين رأيى من رأيكَ ؟ فقال لى : دَعِ المودةَ على حالها ، قال : فغلبنى القرشىُّ بعقله ، وعن طاووس أنه أقام على صاحبٍ له مرض حتى فاته الحج .

وقال المروذى : سمعت أبا عبد الله يقول : قد كنت وافقت يحيى ونحن بالكوفة فمرض، قال : فتركتُ سماعى ورجعت معه إلى بغداد ، قال : فكان يحيى يَشْكُرُ لى ذاك .

---

(١) أبو داود فى الجنائز ، ب عيادة النساء (٣٠٩٢) .

فصل فى حسن الخلق

قال ابنُ منصور : سألت أبا عبد الله عن حُسْنِ الخُلُقِ قال : ألا تغضب ولا تَحْتَدَّ . قيل له : المعاملة بين الناس فى الشراء والبيع ؟ فلم يَرَ ذلك . قال إسحاق بن راهويه : هو بَسْطُ الوجه وألا تغضبَ ونحو ذلك ، ذكره الخلال .

وروى البيهقى فى « مناقب الإمام أحمد » عن إسحاق بن منصور أنه سأل أحمدَ بن حنبل عن حُسْنِ الخلق فقال : هو أن يحتملَ من الناس ما يكون إليه . وروى الخلال ، عن سلام بن أبى مطيع فى تفسير حُسْنِ الخُلق ، فأنشد هذا البيت :

تَـرَاهُ إذا ما جِـئْـتَـه مُتَـهـللاً كأنك مُعْطِيـه الذى أنتَ سـائلُـهْ

وروى أيضاً عن الفضيل أنه قال : مَنْ ساءَ خُلُقه ساء دِينُه ، وحَسَبُهُ ومَوَدَّتُه . وقال مهنا: سألتُ أحمدَ عن رجلٍ ظلمنى وتَعَدَّى علىَّ ، ووقع فى شىء عند السلطان : أعينُ عليه عند السلطانِ ؟ قال : لا ، بل اشفع فيه إن قدرتَ . قلتُ : سرقنى فى المكيال والميزان أدسُّ إليه من يوقفه على السرقة ؟ قال : إن وقع فى شىء فقدرتَ أن تشفعَ له فاشفعْ له . انتهى كلامه .

وروى غير واحد ، وإسناده ضعيف ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بَسْطُ الوجه وحُسْنُ الخُلُق » (١).

وروى أبو حفص العكبرى فى « الأدب » له بإسناده عن عائشة مرفوعاً : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم فَلْيَسَعْهُمْ منكم طلاقةُ الوجه وحسن البِشْرِ ». وفى حُسْنِ الخُلقِ أحاديث كثيرة.

ففى « الصحيحين » أو أحدهما عن النبىِّ ﷺ أنه قال : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً » (٢)، وفى بعض طرقٍ للبخارى: « إنَّ خياركم أحسنكم أخلاقاً »(٣) بإسقاط «من».

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن عثمان الدمشقى أبو الجماهر ، حدثنا أبو كعب أيوب بن محمد السعدى ، حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّهﷺ: « أنا زعيم ببيتٍ فى رَبَضِ الجنة لِمَنْ تركَ المِراءَ وإنْ كان محقًّا ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذبَ وإن كانَ مازحاً ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقه»(٤)، أيوب تفرد عنه أبو الجماهر

---

(١) فتح البارى ١٠/٤٥٩ ، والبزار فى كشف الأستار (١٩٧٧) ،وقال:« لم يتابع عبد الله بن سعيد على هذا وتفرد به » ، وأبو يعلى فى مسنده (٦٥٥٠) ، وابن حجر فى المطالب العالية (٢٥٣٩) .

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة ، ب مناقب عبد الله بن مسعود (٣٧٥٩) ، ومسلم فى الفضائل ، ب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١ /٦٨) .

(٣) البخارى فى الأدب ، ب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٥) عن عبد الله بن عمرو .

(٤) أبو داود فى الأدب ، ب فى حسن الخلق (٤٨٠٠) .

لكنه ثقة .

وعن سلمة بن وردان ، عن أنس مرفوعاً : « مَنْ ترك الكذب وهو باطل بُنِىَ له فى ربض الجنة ، ومَنْ ترك المراء وهو مُحِقٌّ بنى له فى وسطها ، ومَنْ حَسُنَ خلقه بُنِىَ له فى أعلاها»(١). سلمة ضعيف عندهم ، رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .

وعن ابن مسعود أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « اللهم أحسنتَ خَلْقِى فأحْسِنْ خُلُقِى ». وعن عائشة مرفوعاً مثله ، رواهما أحمد ومسلم (٢) .

وصحح ابنُ حبان خبرَ ابنِ مسعود (٣) ، ورواه البيهقى فى كتاب « الدعوات » وقال فيه : كان رسولُ اللّه ﷺ إذا نظر إلى وجهه فى المرآة ، وذكره . ورواه أبو بكر بن مردويه فى كتاب «الأدعية » من حديث أبى هريرة وعائشة وفى آخره : « وحَرِّمْ وجهى على النار » .

وقال الحسن والقُرَظىُّ فى قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]. أى: وخُلُقَكَ فَحَسِّن.

وعن عائشة مرفوعاً : « الشؤمُ سوءُ الخُلُق » رواه أحمد (٤) . والشؤم ضد اليُمْنِ يقال : تشاءمتُ بالشىء وتيمنت به .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « حُرِّمَ على النار كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قريبٍ من الناس » رواه أحمد والترمذى (٥) .

وقال البراء رضى اللّه عنه : كان رسول اللّه ﷺ أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقا . رواه البخارى وغيره (٦) . قال تعالى : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم : ٤] . قيل : دين الإسلام . وقيل : أدب القرآن . وقال الماوردى : الطبع الكريم ، فسمى خلقاً لأنه يصير كالخِلْقَة فى صاحبه . فأما ما طُبِعَ عليه فيسمى الخِيم فيكون الخِيمُ : الطبعُ الغريزى ، والخُلُق : الطبعُ المتكلف . انتهى كلامه. قال الجوهرى : الخَلق والخلق السَّجِيَّة ، وفلانٌ يتخلَّقُ بغير خلقه أى يتكلفه . وقال الشاعر :

يا أيها المُتَحَلِّى غيرَ شِيمتِهِ ... إنَّ التَّخَلُّقَ يأتى دُونَهُ الخُلُقُ

---

(١) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المراء (١٩٩٣) ، وقال : « هذا حديث حسن » ، وابن ماجه فى المقدمة ، ب اجتناب البدع والجدل (٥١) .

(٢) أحمد ١/ ٤٠٣ ، ٦/ ٦٨ ، والحديث ليس فى صحيح مسلم .

(٣) ابن حبان فى صحيحه (٩٥٥) .

(٤) أحمد ٦/ ٨٥ .

(٥) أحمد ١/ ٤١٥ ، والترمذى فى صفة القيامة ، ب ٤٥ (٢٤٨٨) ،وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

(٦) البخارى فى المناقب ، ب صفة النبى ﷺ (٣٥٤٩)، ومسلم فى الفضائل ،ب فى صفة النبى ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجها (٢٣٣٧/ ٩٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة، ب صفة قامة رسول الله ﷺ ١/ ٢٥٠.

قال : والخيم بالكسر : السجيةُ والطبيعةُ ، لا واحدَ له من لفظه ، فدل على الترادف ، خلاف ما قاله الماوردى .

وقال فى « النهاية » : الخُلُقُ بضم اللام وسكونها : الدين والطبع والسجية [1] . وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة . والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ؛ ولهذا تكررت الأحاديث فى حسن الخلق ، وذم سوء الخلق .

ولمسلم عن عائشة أنها سئلت عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن»[2]. أى كان متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتملُ عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

وفى حديث أبى قتادة فى قصة نومهم عن صلاة الفجر لما لحقهم وقد عطشوا فقال : « لا هُلْكَ عليكم » بضم الهاء وهو الهلاك ، ثم قال : « اطلقوا إلىَّ غُمَرى » بضم الغين المعجمة وفتح الميم وبالراء وهو القدح الصغير ، ودعا بالميضأة فجعل رسول اللّه ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فلم يَعْدُ أنْ رأى الناس ماء فى الميضأة تكابُّوا عليها ، فقال رسول اللّه ﷺ : «أحسنوا المَلأَ كُلُكُمْ سَيَرْوَى » قال : ففعلوا ، فجعل رسول اللّه ﷺ يصب وأسقيهم ، حتى ما بقىَ غيرى وغير رسول اللّه ﷺ فقال لى : « اشرب » فقلت : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسولَ اللّه، قال : « إن ساقى القوم آخرهم شرباً » قال : فشربتُ وشرب رسول اللّه ﷺ . رواه مسلم [3] .

الملأ بفتح الميم واللام وآخره همزة منصوب مفعول أحْسِنُوا ، والملأ : الخُلُقُ والعِشْرَةُ ، يقال : ما أحسنَ ملأ فلان ! أى : خلقه وعشرته ، وما أحسن ملأ بنى فلان ! أى : عشرتهم وأخلاقهم . كان يقال : مَنْ ساء خلقه قَلَّ صديقه ، قال محمد بن حازم :

وما اكتسبَ المحامدَ طالبُوها ... بمثلِ البِشْرِ والوجهِ الطليقِ

وقال آخر :

وخَالِق الناسَ بِخُلْقٍ حَسَنٍ ... لا تكُنْ كلباً على الناس تَهِرْ

وقال آخر :

وما حَسَنٌ أن يمدحَ المرءُ نفسَهُ ... ولكنَّ أخلاقاً تَذُمُّ وتَمْدَحُ

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٧٠ .

(٢) مسلم فى المسافرين ، ب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٣) مسلم فى المساجد ، ب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨١/ ٣١١) .

ولأبى داود عن قتيبة ، عن يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب بن عبد اللّه بن حنطب ، عن عائشة مرفوعاً : « إنَّ الرجلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائم القائم »[1] كلهم ثقات ، والمطلب حسن الحديث ووثقه الأكثر ، وقال أبو زرعة : أرجو أنْ يكون سمع من عائشة . وقال أبو حاتم : لم يدركها .

وعن أبى الدرداء مرفوعاً : « ما من شىء أثقلُ فى الميزان من خُلُقٍ حسن » إسناد جيد ، رواه أبو داود والترمذى وصححه [2] . وللترمذى فى رواية ، بإسناد حسن معنى حديث عائشة وقال : غريب من هذا الوجه [3] .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : أنه سئل عن أكثر ما يدخل الناسَ الجنة ، قال : « تقوى اللّه وحُسْنُ الخُلُق » ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال : « الفم والفرج » [4] رواه جماعة ، منهم الترمذى وصححه .

وعن أم سلمة أنها قالت : يا رسول اللّه ، المرأة تتزوج الاثنين والثلاثة والأربعة ثم تدخل الجنة ويدخلون معها ، مَنْ يكون زوجها ؟ قال : « إنها تُخَيَّرُ فتختار أحسنهم خُلُقاً ــ ثم قال ــ يا أُمَّ سلمة ، ذهب حُسْنُ الخُلُقِ بخيرِ الدنيا والآخرة » [5] فى إسناده سليمان بن أبى كريمة وهو ضعيف .

وعن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ وأبى ذر مرفوعاً : « اتَّقِ اللّه حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا ، وخالقِ الناسَ بخلُقٍ حسن » [6] سنده جيد إلى ميمون ، وميمون حسن الحديث ، وضَعَّفَهُ ابنُ معين ، ولم يسمع منهما ، رواه الترمذى وحسنه ، ورواه أحمد من حديث ميمون عن معاذ [7] .

وفى الصحيحين من حديث عدى بن حاتم : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة ، فإنْ لم تجدوا فبكلمةٍ طيبة » [8] .

---

(١) أبو داود فى الأدب ، ب حسن الخلق (٤٧٩٨) .

(٢) أبو داود فى الأدب ، ب حسن الخلق (٤٧٩٩) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٢) .

(٣) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٣) .

(٤) أحمد ٢/ ٢٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب فى حسن الخلق (٢٠٠٤) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر الذنوب (٤٢٤٦) .

(٥) السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ١٥١ والطبرانى فى الكبير ٢٣ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ (٨٧٠) ، والهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٢ وقال : « فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى » .

(٦) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى معاشرة الناس (١٩٨٧) .

(٧) أحمد ٥/ ٢٣٦ .

(٨) البخارى فى الأدب ، ب طيب الكلام (٦٠٢٣) ، ومسلم فى الزكاة ، ب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (٦٨/١٠١٦) .

ولمسلم من حديث أبى ذر : « لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوجه طَلْقٍ»(١) ، روى بسكون اللام وكسرها ، وبزيادة ياء : طليق .

ولابن ماجه من حديث ابن عمر : إن رجلاً قال : يا رسول اللّه ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلُقاً » (٢) .

وعن أسامة بن شريك قال : أتيت النبى ﷺ وأصحابه عنده فكأن على رؤوسهم الطير ، الحديث . وفى آخره : قالوا : ما خير ما أُعطىَ الناسُ يارسول اللّه ؟ قال : « خلق حسن »(٣) حديث صحيح ، رواه أحمد وابن ماجه .

ولابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث أبى ذر : « لا عقلَ كالتدبير ، ولا وَرَعَ كالكَفِّ ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ » (٤) .

قال الحسن البصرى : حقيقةُ حُسْنِ الخُلُقِ بَذْلُ المعروف ، وكَفُّ الأذى وطلاقةُ الوجه . ورواه الترمذى عن عبد اللّه بن المبارك (٥) .

وحكى فى « شرح مسلم » فى باب كثرة حيائه ﷺ : إن القاضىَ عِيَاضاً قال : حكى الطبرى خلافاً للسلف : هل هو غريزة ، أم مكتسب ؟ وتقدم قول الماوردى ، فيكون هذا وهذا كما قيل : إن العقل غريزة ومنه ما يُستفادُ بالتجارب وغير ذلك وهذا متوجه .

وعن الزهرى ، عن أبى الدرداء مرفوعاً : « إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل زال عن خُلُقِه فلا تُصَدِّقُوا به ، فإنه سيصيرُ إلى ما جُبِلَ عليه » (٦) منقطع وهو ثابت إلى الزهرى ، رواه أحمد .

وروى هذا المعنى أبو حفص العكبرى فى « الأدب » له ، عن عبد اللّه بن مسعود وقال : فإنكم لا تستطيعون أن تغيروا خلقه .

وروى أبو حفص أيضاً عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة : ليكنْ وجهُك بَسْطاً ، وكلمتك طيبةً ، تَكُنْ أحَبَّ إلى الناس من الذى يُعطيهم العطاءَ .

وذكر ابن عبد البر قول سفيان بن عيينة : مَنْ حَسُنَ خُلُقُه ساء خُلُقُ خادمه . وكان بين سعيد بن العاص وقومٍ من أهلِ المدينة منازعةٌ ، فلما ولاه معاوية رضى الله عنهما المدينة ترك

---

(١) مسلم فى البر والصلة ، ب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦/ ١٤٤) .

(٢) ابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٩) قال فى الزوائد : « فردة بن قيس مجهول ، وكذلك الراوى عنه وخبره باطل » .

(٣) أحمد ٤/ ٢٧٨ ، وابن ماجه فى الطب ، ب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٦) .

(٤) ابن ماجه فى الزهد ، ب الورع والتقوى (٤٢١٨) .

(٥) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٥) .

(٦) أحمد ٦/ ٤٤٣ .

المنازعة ، وقال : لا أنتصر لنفسى وأنا والٍ عليهم . قال ابن عقيل فى « الفنون » : هذه واللّه مكارم الأخلاق .

وروى الخلال عن سهل بن سعد مرفوعاً : « إنَّ اللّه كريمٌ يحب الكريم ومعالى الأخلاق ويكره سَفْسَافَها » (١) .

وروى أيضاً عن جابر مرفوعاً : « إن اللّه يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها » .

السفساف : الأمر الحقير ، والردىء من كل شىء ضد المعالى والمكارم ، وقد قيل :

إذا أنتَ جازيتَ المسيء بفعله ... فَفِعْلُكَ من فعل المسىء قريبُ

وقيل أيضاً :

وإذا أردَت منازلَ الأشراف ... فعليك بالإسعاف والإنصاف

وإذا بغى باغٍ عليكَ فخله ... والدهرَ ؛ فهو له مُكافٍ كافِ

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « ما مِنْ ذَنْبٍ أجدر أنْ يُعَجِّلَ اللّه لصاحبه العقوبةَ فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وصححه من رواية عُيَيْنَةَ بن عبد الرحمن بن جَوْشن ، عن أبيه ، ولم يرو عنه غير ابنه عيينة ، ووثقه أبو زرعة عن أبى بكرة مرفوعاً (٢) .

ولمسلم وأبى داود وغيرهما ، عن عياض بن حمار ، عن النبى ﷺ : « إن اللّه تعالى أوحى إلىَّ أنْ تَواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ولا يبغى أحدٌ على أحد » (٣) .

قال الشيخ تقى الدين فى « اقتضاء الصراط المستقيم » : فجمع النبىُّ ﷺ بين نوعى الاستطالة : لأنَّ المستطيلَ إن استطالَ بحقٍّ فهو المفتخر ، وإن استطال بغير حقٍّ فهو الباغى ؛ فلا يحل لا هذا ولا هذا .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : « ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه اللّه » (٤) ، ويأتى فى أحاديث اللباس أواخر الكتاب : « لا يدخل الجنة مَنْ فى قلبه مِثقالُ ذرة من كِبْرٍ ، ولا ينظر اللّه إلى مَنْ جَرَّ إزاره بطراً » .

---

(١) أبو نعيم فى حلية الأولياء ٨ / ١٣٣ ، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق ٧ / ٩٠ .

(٢) أحمد ٥ / ٣٦ ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى النهى عن البغى (٤٩٠٢) ، والترمذى فى صفة القيامة ، ب ٥٧ (٢٥١١) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب البغى (٤٢١١) .

(٣) مسلم فى الجنة ، ب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥ / ٦٤) ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى التواضع (٤٨٩٥) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٩) .

(٤) مسلم فى البر والصلة ، ب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨ / ٦٩) .

وقال محمد بن على بن حسين عليهم السلام : يا عجباً من المختال الفخور الذى خُلِقَ من نطفة ثم يصير جِيفةً لا يدرى بعد ذلك ما يُفْعَلُ به .

وقيل لعيسى عليه السلام : طوبى لبطنٍ حملكَ ، فقال : طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يكن جباراً عنيداً .

وقال مالك بن دينار : كيف يَتِيْهُ مَنْ أوَّلُهُ نُطْفَةٌ مَذِرَة ، وآخره جِيفةٌ قَذِرَة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة ؟! وقال منصور :

تَـتِـيْـهُ وجـسـمـكَ من نـطـفـة وأنـتَ وعـاءٌ لـمـا تَـعْـلَـم

وكان يقول : لولا ثلاثٌ سَلِمَ الناسُ : شُحٌّ مُطاع ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه . وقال جعفر بن محمد رضى اللّه عنهما : عَلِمَ اللّهُ أنَّ الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك لما ابتلى مؤمنٌ بذنب . وقال الشاعر :

وَمَنْ أمِنَ الآفات عجباً برأيه أحاطتْ بهْ الآفاتُ منْ حيثْ يجهلُ

وذكر ابن عبد البر الخبرَ عن رسول اللّه ﷺ : « لا حَسَبَ إلا فى التواضع ، ولا نَسَبَ إلا بالتقوى ، ولا عملَ إلا بالنية ، ولا عبادة إلا باليقين »(١) .

وعن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ عَظُمَتْ نعمةُ اللّه عليه فليطلبْ بالتواضع شُكْرَهَا ، وإنه لا يكون شكوراً حتى يكون متواضعاً » .

وقال عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه : إن من التواضع الرضا بالدون من شرف المجلس، وأنْ تسلم على مَنْ لقيت .

وقال عبد اللّه بن المبارك : التعزز على الأغنياء تواضع . كان يقال : الغنى فى النفس ، والكرم فى التقوى ، والشرف فى التواضع .

وكان سليمان بن داود عليهما السلام يجىء إلى أوضع مجالس بنى إسرائيل ويقول : مسكينٌ بين ظهرانى مساكين .

وكان يقال : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة التواضع المحبة .

وقال لقمان لابنه : يا بنى تواضع للحق تكن أعقل الناس .

وقال أبو الدرداء : ليس [الذى](٢) يقول الحق ويفعله بأفضل من الذى يسمعه فيقبله.

وقال بعض الحكماء : إذا نسك الشريفُ تَواضعَ ، وإذا نسك الوضيعُ تَكَبَّرَ .

---

(١) الديلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب (٧٩٢٥) ، والعجلونى فى كشف الخفاء ٢ / ٣٦١ كلاهما عن على ابن أبى طالب .

(٢) ساقطة من المخطوطة وهى فى أ ، ر ، ط .

وقال بعض الفلاسفة: أظلم الناس لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب فيمن يبعده.

وقال بزرجمهر: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقال ابنُ السماك للرشيد : تَواضُعُكَ فى شرفك أشرفُ من شرفك .

وقال ابن عبد البر : روى من حديث ابن عمر ، عن النبى ﷺ : « لا يعجبنكم إيمانُ الرجل حتى تعلموا ما عقدة عقله » (١) ، وهذا الخبر من رواية إسحاق بن أبى فروة مذكور فى ترجمته وهو متروك .

قال ابن عبد البر : وقد روى عن النبى ﷺ قال : « فى صحف موسى وحكمة داود عليهما السلام : حَقٌ على العاقل أنْ يكونَ له أربع ساعات : ساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسه ، وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويَصْدُقُونَهُ عن نفسه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه ولذاتها فيما يَحلُّ ويَجْمُلُ ،فإن هذه الساعة عَوْنٌ له» (٢) .

قال : وعلى العاقلِ أنْ يكون عارفاً بزمانه ، مالكاً للسانه ، مقبلاً على شأنه .

وقال بعضهم : أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام : أتدرى لِمَ رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا، قال : ليعلم العاقلُ أنَّ الرزق ليس باحتيال .

وقال ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ حُرِمَهُنَّ فقد حُرِمَ خيرَ الدنيا والآخرة : عقلٌ يدارى به الناسَ ، وحلم يرد به السفيه ، وورع يَحْجُزُهُ عن المحارم » (٣) .

افتخر رجلان عند على بن أبى طالب رضى اللّه عنه فقال : أتفتخران بأجساد بالية ، وأرواحٍ فى النار ؟ إنْ يَكُنْ لكما عَمَلٌ فلكما أصل ، وإنْ يَكُنْ لكما خُلُقٌ فلكما شرف ، وإن يكن لكما تقوى فلكما كرم ، وإلا فالحمارُ خيرٌ منكما ، ولستما خيراً من أحد .

وقال أيضاً رضى اللّه عنه : العاقلُ الذى لم يَحْرِمهُ نصيبهُ من الدنيا حظَّهُ من الآخرة .

وقال أيضاً فى وصيته لابنه : لا مالَ أعود من العقل ، ولا فقر أشد من الجهل ، ولا وحدة أوحش من العُجْب ، ولا مظاهرة كالمشاورة ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخلق . وكان يقال : إذا كان علم الرجل أكثر من عقله كان قمناً أن يضره علمه . قال الشاعر :

ولا خيرَ فىْ حُسْنِ الجُسومِ وطُولِها إذا لم يَزِنْ حُسْنَ الجُسومِ عقولُ

(١) ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال ١/ ٣٢٩ .
(٢) ابن أبى الدنيا فى العقل وفضله ص٣٨ .
(٣) السابق ص ٦٨ .

وقال مطرف بن الشِّخير [1] : عقولُ كُلِّ قومٍ على قَدْرِ زمانهم .

كان يقال : خِصالٌ ستٌّ تُعرف فى الجاهل : الغضب فى غير شىء ، والكلام فى غير نفع، والعطيةُ فى غير موضعها ، وإفشاءُ السر ، والثقةُ بكل أحد ، ولا يعرف صديقه من عدوه.

وقال يحيى بن خالد : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتابُ على مقدارِ عقل كاتبه، والرسولُ على مقدار عقل مُرْسِلِه ، والهديةُ على مقدار عقل مُهْدِيها .

وقيل لابن هبيرة : ما حَدُّ الحمق ؟ قال : لا حَدَّ له . وقال بعضهم : الحمقُ : الكسادُ يقال : انحمقتِ السُّوقُ : إذا كسدت ، ومنه الرجل الأحمق ؛ لأنه كاسدُ العقلِ لا يُنتفعُ برأيه ولا بعقله ؛ والحمق أيضاً : الغرور ، يقال : سرنا فى ليالٍ مُحمقات : إذا كان القمر فيهن يسيرُ بغيمٍ أبيض دقيق فيغترُّ الناسُ بذلك يظنون أنْ قد أصبحوا فيسيرون حتى يملوا ، قال : ومنه أخذ الاسم « الأحمق » لأنه يَغُرُّكَ فى أولِ مجلسه بتغافله ، فإذا انتهى إلى آخر كلامه تبين حُمْقُهُ .

وقال الجوهرى فى « الصحاح » : الحُمْق والحُمُق : قِلَّةُ العقل ، وقد حَمُقَ الرجلُ بالضم حماقة فهو أحمقُ ، وحَمِقَ أيضاً بالكسر يَحمَقُ حُمقاً مثل غَنِمَ غُنماً فهو حَمِق ، وامرأة حمقاء، وقوم ونسوة حُمُقٌ وحَمقى وحَماقى ، وحَمُقَت السوقُ بالضم ، أى : كسدت ، وأَحمقتِ المرأة ، أى : جاءت بولد أحمق فهى مُحمِقٌ ومُحمقة ، فإن كان من عادتها أنْ تَلِدَ الحمقى فهى مِحْمَاقٌ ، ويقال : أحمقتُ الرجل : إذا وجدْتَه أحمقَ ، وحمَّقته تحميقاً : نسبتَه إلى الحُمق ، وحامقتُه : إذا ساعدتَه على حمقه ، واستحمقته ، أى : عَدَدْتُه أحمق ، وتحامق فلان : إذا تَكَلَّفَ الحماقة ، ويقال : انحمَقت السوقُ ، أى : كسدت ، وانحمق الثوب ، أى: أخلق .

ذكر المغيرة بن شعبة يوماً عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقال : كان واللّه أفضلَ من أنْ يَخْدَعَ ، وأعقلَ من أن يُخْدَعَ .

وقال الحجاج يوماً : العاقلُ مَنْ يعرفُ عيبَ نفسه ، فقال له عبد الملك : فما عَيْبُكَ ؟ قال: أنا حَسُودٌ حَقُود ، فقال له عبد الملك : ما فى إبليسَ شَرٌّ من هاتين .

---

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، أبو عبد الله الحرشى العامرى البصرى ، حدث عن أبيه ، وعلى ، وعمار، وأبى ذر وغيرهم ، وحدث عنه الحسن البصرى ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وثابت البنانى وغيرهم ، كان ثقة له فضل وورع وعقل وأدب، مات سنة ست وثمانين. [سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧ ــ ١٩٥].

وقال الحسن البصرى : صِلَةُ العاقلِ إقامةُ دينِ الله ، وهجرانُ الأحمق قربةٌ إلى الله ، وإكرامُ المؤمن خدمةٌ لله وتواضعٌ له . كان يقال : إذا تَمَّ العقلُ نقص الكلام ، قال الشاعر :

ألا إنما الإنسانُ غِمْدٌ لعقله ... ولاخيرَ فى غِمْدٍ إذا لم يكن له نَصْلُ
فإن كان للإنسان عقلٌ فإنه ... هو النصل والإنسان من بعده فضل

وقال آخر :

وليس عتابُ المرء للمرء نافعاً ... إذا لم يكنْ للمرء عقلٌ يعاتبه

وقال آخر :

تحَامَقْ مع الحمقى إذا ما لَقِيْتَهُمْ ... ولا تَلْقَهُمْ بالعقلِ إن كنتَ ذا عقلِ
فإنى رأيتُ المرءَ يشقى بعقله ... كما كان قبلَ اليوم يَسْعَدُ بالعقلِ

وكان الحسن البصرى إذا أُخْبِرَ عن أحدٍ بصلاح قال : كيف عقله ؟ ما يتم دينُ امرئ حتى يتم عقله .

وقال الأوزاعى : قيل لعيسى عليه السلام : يا روح اللّه أنت تُبْرئُ الأكمه والأبرصَ وتحيى الموتى بإذن اللّه ، فما دواءُ الأحمق ؟ قال : ذلك أعيانى .

وقال زيد بن أسلم : قال لقمان لابنه : يا بنى ، لأنْ يَضربكَ الحليمُ خيرٌ من أن يدهنك الأحمق .

وقال عمر بن عبد العزيز : خصلتان لا تعدمك من الأحمق ، أو قال : من الجاهل : كثرة الالتفات ، وسرعة الجواب .

وقال سهل بن هارون : ثلاثة من المجانين وإنْ كانوا عقلاء : الغضبان ، والعريان، والسكران .

سمع الأحنف رجلاً يقول : ما أبالى أَمُدحْتُ أم هُجيتُ ، فقال : استرحتَ مِنْ حيثُ تَعِبَ الكِرامُ . وقالت العرب : استراح مَنْ لا عقلَ له . وقالت الفرس : مات مَنْ لا عقل له. قال الشاعر :

كم كافرٍ باللّه أموالُه ... تزدادُ أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزدادُ إيماناً على فقره
لا خيرَ فيمن لم يكن عاقلاً ... يمُدُّ رجليه على قَدْرِه

وروى الحاكم فى « تاريخه » عن ابن المبارك ، وقيل له : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال: غريزةُ عقل ، قلت : فإن لم يكن ؟ قال : حسن أدب . قلت : فإن لم يكن ؟ قال : أخ

شفيق يستشيره فيشير عليه، قلت: فإن لم يكن ؟ قال : صَمْتٌ طويل ، قلت : فإن لم يكن ؟ قال : موتٌ عاجل .

ومن كلام الحمقى : استعمل معاويةُ رضى اللّه عنه رجلاً من كَلْبٍ فذكر المجوس يوماً فقال : لعن اللّهُ المجوسَ ينكحون أمهاتهم ، واللّه لو أعطيتُ عشرةَ آلاف درهم ما نكحتُ أمى، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قَبَّحَهُ اللّه ، أترونه لو زِيْدَ فعل ؟

قيل لبردعة المُوَسْوِس : أيما أفضلُ غيلانُ أم مُعَلَّى ؟ قال : معلى. قال: ومِنْ أين ؟ قال: لأنه لما مات غيلان ذهب معلى إلى جنازته ، فلما ماتَ مُعَلَّى لم يذهب غيلان إلى جنازته .

رفع رجل من العامة ببغداد إلى بعض ولاتها على جار له : أنه يتزندق ، فسأله الوالى عن قوله الذى نَسَبَهُ به إلى الزندقة ؟ فقال : هو مُرْجئٌ ناصبىٌّ رافضىٌّ من الخوارج يُبغضُ معاويةَ ابن الخطاب الذى قتل علىَّ بن العاص. فقال له ذلك الوالى: ما أدرى على أىِّ شىءٍ أحسدك ؟ أعلى علمك بالمقالاتِ ، أم على بَصَرِكَ بالأنساب ؟

دخل رجل من العامة الجَهَلَةِ الحمقى على شيخ من شيوخ أهل العلم ، فقال له : أصلح اللّه الشيخ ، قد سمعتُ فى السوق الساعةَ شيئاً منكراً ولا يُنْكِرُهُ أحدٌ ؟ قال : وما سمعتَ ؟ قال : سمعتهم يسبون الأنبياء . قال الشيخ : ومَنِ المشتومُ من الأنبياء ؟ قال : سمعتهم يشتمون معاوية . قال : يا أخى ليس معاويةُ بنبىٍّ . قال : فَهَبْهُ نِصْفَ نبى ، لِمَ يُشتم ؟

وقال عمرو بن بحر : ذكر لى بعض الإباضية أنه جرى عنده ذِكْرُ الشيعة يوماً ، فغضب وشتمهم ، وذكر ذلك كالمُنْكِر عليهم نِحْلَتَهُم إنكاراً شديداً ، قال : فسألته يوماً عن سببِ إنكاره على الشيعة ولَعْنِه لهم ؟ فقال : لمكانِ الشينِ فى أول كلمة لأنى لم أجد ذلك قط إلا فى مسخوطة مثل : شؤم وشر وشيطان وشيخ وشعث وشعب وشرك وشتم وشقاق وشِطْرَنْج وشَيْن وشَنٍّ وشانِئ وشوصة وشوك وشكوى وشنان ، فقلت له : إن هذا كثير ، ما أظن أن هذا لقوم يقيم اللّه لهم علماً أبداً .

سَلَّمَ فَزَارَةُ ــ صاحبُ المظالم بالبصرة ــ على يسارِه فى الصلاة ، فقيل له فى ذلك ، فقال: كان على يمينى إنسانٌ لا أُكلِّمُه .

قال فزارة يوماً فى مجلسه : لو غسلتُ يدى مائتى مرة ما تنظفت حتى أغليها [1] مرتين. وفيه يقول الشاعر :

ومن المظالمِ أنْ تكون على المظــالمِ يا فَزَارَهْ

(١) فى المخطوطة و ر : « أغسلها » ، والمثبت من ط وهو أوفق .

ولَىَ رجلٌ مُقِلٌّ قضاءَ الأهواز ، فأبطأ عليه رِزْقُه ، وحضر عيد الأضحى وليس عنده ما يُضَحِّى به ولا ما ينفق ، فشكا ذلك إلى زوجته ، فقالت : لا تغتم ، فإنَّ عندى ديكاً جليلاً قد سمنته فإذا كان عيد الأضحى ذبحناه .

فلما كان يوم الأضحى وأرادوا الديك للذبح طار على سقوف الجيران فطلبوه ، وفشا الخبرُ فى الجيران وكانوا مياسيرَ ، فَرقُّوا للقاضى ورَقُّوا لقلة ذات يده ، فأهدى إليه كل واحد كبشاً فاجتمعت فى داره أكبش كثيرة وهو فى المُصَلَّى لا يعلم ، فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحى قال لامرأته : من أين هذا ؟ فقالت : أهدى إلينا فلان وفلان ــ حتى سَمَّتْ جماعتهم ــ ما ترى . قال : ويحك احتفظى بديكنا هذا فما فُدِىَ إسحاق بن إبراهيم إلا بكبش واحد ، وقد فُدِىَ ديكنا بهذا العدد .

قال الحسن رحمه اللّه : الأخلاقُ للمؤمن قُوَّةٌ فى لِين ، وحَزْمٌ فى دين ، وإيمانٌ فى يقين، وحِرْصٌ على العلم ، واقتصاد فى النفقة ، وبَذْلٌ فى السعة ، وقناعة فى الفاقة ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء فى كرم ، وبِرٌّ فى استقامة .

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه : إنما أنا رجلٌ منكم ليس فىَّ فضلٌ عليكم ، ولكنى أبسطُ لكم وجهى ، وأبذلُ لكم مالى ، وأقضى حقوقكم ، وأَحُوطُ حريمكم ، فمن فعل مِثْلَ فِعلى ، فهو مِثلى ، ومن زاد علىَّ ، فهو خير منى ، ومن زدت عليه ، فأنا خير منه . قيل له: يا أبا محمد ، ما يدعوك إلى هذا الكلام ؟ قال : أَحُضُّهم على مكارمِ الأخلاق .

وسئل عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما عن السؤدد فقال : الحِلْمُ السُّؤدُد . وقال أيضاً : نحنُ معشر قريش نَعدُّ الحلم والجود السؤدد ، ونعد العفافَ وإصلاحَ المال المروءة .

وقال أبو عمرو بن العلاء : كان أهلُ الجاهلية لا يُسَوِّدونَ إلا مَنْ كانت فيه ست خصال وتمامها فى الإسلام سابعة : السخاء والنجدة والصبر والحلم والبيان والحسب ، وفى الإسلام زيادة العفاف .

ذُكِرَ لعبد اللّه بن عمر: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية رضى اللّه عنهم فقال : كان معاويةُ أسودَ منهم ، وكانوا خيراً منه .

وذكر ابن عبد البر عن النبى ﷺ قال : « مَنْ رزقه اللّه مالاً ، فبذل معروفه وكَفَّ أذاه فذلك السيدُ » .

وقال ﷺ يوماً للأنصار : « مَنْ سيِّدكم ؟ » قالوا : الجَدُّ بن قيس على بخل فيه ، فقال النبىُّ ﷺ : « أى داءٍ أدوأُ من البخل ؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » [1] فقال

(١) فتح البارى ٥/ ١٧٨ ، ١٧٩ عن كعب بن مالك ، والحاكم فى المستدرك فى معرفة الصحابة ، ب مناقب بشر بن البراء بن معرور ٣/ ٢١٩ ، عن أبى هريرة ، وليس فيه عمرو بن الجموح .

شاعرهم فى ذلك :

وقال رسُول اللّه والحقُّ قولُه ... لمن قال منا : مَنْ تُسَمُّون سيداً ؟
فقالوا له الجد بن قيس على التى ... نُبَخِّلُه فيها وإنْ كان أسودا
فتىً ما تَخَطَّى خطوةً لِدَنِيَّةٍ ... ولا مَدَّ فى يوم إلى سوأة يدا
فسود عمرو بن الجموح بجوده ... وحق لعمرٍو بالندى أنْ يُسَوَّدا
إذا جاءه السُّوَّالُ أنهبَ مالَهُ ... وقال : خذوه إنه راجعٌ غداً
فلو كنتَ يا جدَّ بن قيسٍ على التى ... على مِثْلِها عمروٌ لكنتَ مُسَوَّداً

وقال بعضهم : السؤدد بالبخت ، كم من فقيرٍ ساد وليس له بالمال إلى غيره كعتبة بن ربيعة وغيره .

سب الشعبىَّ رجلٌ فقال له : إنْ كنتَ كاذباً يغفر اللّه لك ، وإن كنت صادقاً يغفر اللّه لى.

وقال خالد بن صفوان : شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه فقال له : آجَرَكَ اللّهُ على ما ذكرتَ من خطأ ، قال : فما حسدتُ أحداً حسدى عمرو بن عبيد على هاتين الكلمتين .

وقال الأحنف بن قيس : ما نازعنى أحدٌ إلا أخذتُ فى أمره بإحدى ثلاث خصال : إنْ كان فوقى عرفت له قَدْرَهُ ، وإنْ كان دونى كرمت نفسى عنه ، وإن كان مثلى تفضلتُ عليه . أخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال :

سأُلْزِمُ نفسى الصبرَ عن كُلِّ مذنبٍ ... وإنْ كَثُرَتْ منه علىَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاومُ
فأما الذى فوقى فأعرفُ فَضْلَهُ ... وألزم فيه الحَقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذى دونى فإنْ قال،صُنْتُ عن ... مقالته نفسى وإنْ لامَ لائمُ
وأما الذى مِثْلى فإنْ زَلَّ أو هفا ... تفضلتُ،إنَّ الفضلَ بالعز حاكمُ

وقال عَبِيدُ بن الأبرص [1] :

إذا أنتَ لم تعملْ برأيٍ ولم تُطِعْ ... أولى الرأي لم تَركَنْ إلى أمر مرشد

(١) هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدى ، من مضر ، أبو زياد ، شاعر ، من دهاة الجاهلية وحكمائها ، وهو أحد أصحاب « المجمهرات » عاصر امرأ القيس ، وله معه مناظرات ومناقضات ، وعمَّر طويلا حتى النعمان بن المنذر ، له ديوان شعر ، مات نحو سنة خمس وعشرين . [الأعلام ٤/١٨٨].

ولم تجتنبْ ذَمَّ العشيرة كلها وتدفع عنها باللسان وباليد
وتحلم عن جهَّالها وتحوطها وتقمع عنها نخوة المتهدد
فلستَ ــ ولو عَلَّلْت نفسك بالمنى ــ بذى سؤددٍ بادٍ ولا قُرْبَ سُؤْدُدِ

وقال آخر :

إذا هلكت أُسْدُ العرين ولم يكنْ لها خلف فى الغِيل سادَ الثعالبُ
كذا القمرُ السارى إذا غابَ لم يكنْ له خلف فى الجو إلا الكواكبُ

وقال بعض الحكماء : من ابتغى المكارم ، فليتجنب المحارم .

قال رسول اللّه ﷺ لأشج عبد القيس : « فيك خلَّتانِ يحبهما اللّهُ ورسوله ــ أو قال يرضاهما اللّه ورسوله ــ الحِلْمُ والأَنَاةُ » قال : يا رسول الله ، أشىءٌ جَبَلنى اللّهُ عليه أم شىء اخترعته من نفسى ؟ قال : « بل شىء جَبَلَكَ اللّهُ عليه » فقال : الحمد للّه الذى جبلنى على شىء ــ أو على خلُقٍ ــ يَرْضَاهُ اللّهُ ورسوله (١) . والحديث صحيح فى « الصحيحين » أو فى الصحيح .

قال الشعبى : زَيْنُ العلم حِلْمُ أهله ، وقال رجاء بن أبى سلمة : الحلم أرفعُ من العقل لأنَّ اللّه تعالى تَسَمَّى به .

كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال : إنى لأجد ما تجدون ولكنى صبور . وقال معاوية رضى اللّه عنه : إنى لأرفعُ نفسى أن يكون ذنْبٌ أرجحَ من حلمى .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما قُرِنَ شىءٌ إلى شىء أحسن من حِلْمٍ إلى علم ، ومن عفوٍ إلى قُدْرة . وقال أبو العتاهية :

فيا رب هَبْ لى منك حلماً فإننى أرى الحلم لم يندمْ عليه حليمُ
ويا رب هب لى منك عزماً على التقى أقيمُ به ما عشتُ حيثُ أقيم
ألا إنَّ تقوى اللّه أكرم نسبةٍ تسامى بها عند الفخارِ كريمُ

وقال آخر :

أرى الحِلْمَ فى بعض المواطن ذِلَّةً وفى بعضها عِزا يسوّد فاعله

---

(١) مسلم فى الإيمان ، ب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١٧/ ٢٥) ، والحديث ليس فى صحيح البخارى .

وقال آخر :

وإنك تلقى صاحبَ الجهل نادماً عليه،ولا يأسى على الحِلْم صَاحِبُهْ

كان عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما إذا سافر سافرَ معه بِسَفيهٍ ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنْ جاءنا سفيه ، لأنَّا ما ندرى ما نُقابل به السفهاء .

قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

وقال بعضهم :

ولربما اعتَضَدَ الحليمُ بجاهلٍ لا خيرَ فى اليمنى بغير يسار

ومَرَّ قومٌ بدير راهبٍ وفيهم عالم كبير مشار إليه ، فأنزلهم الراهبُ فى صومعةٍ ورَحَّبَ بهم، وتلقَّاهم بالبِشْرِ والكرامة ، فأقاموا عنده كل النهار إلى الليل ، فقام رجلٌ منهم فى حالهم وإصلاح شأنهم ، فلما أن أراد أن يضىء لهم جاء بالقداح فقدح لهم ، فلما أضاء الضوء التفت إلى أحدهم فقال : أيكم الشيخ المُشَارُ إليه ؟ فأشار أحدهم إلى الشيخ ، فتكلم حينئذ الراهبُ بكلامٍ فصيح ، ثم قال للشيخ : ياسيدى هذه النار التى طلعت وأَشْعلتَ منها : أهىَ من الصوانة أم من الحراقة أم من الحديدة ؟ فسكت الشيخ فلم يتكلم ، وكان فى جمْع الشيخ رجلٌ سفيه فتكلم وأبلغ ، وقال : أيها الراهب ، لقد تهجمتَ على مقامٍ لم يكنْ لك ، ألا سألتنى عن هذا السؤال؟ فقال : لم أعرفْ أنَّ عندكَ عِلْماً من ذلك ، فقال : بلى ، فعند ذلك تكلم الراهب ، فلما فرغ من ذلك قال له السفيه وكانوا فى قبة : ما هذا الذى على صدركَ ؟ فطأطأ الراهبُ رأسهُ ينظر إلى ما أشار إليه السفيه ، فصفعه السفيهُ صفعة علا حسُّها علواً شديداً ، ثم قال للراهب : أهذا الحِسُّ من ساحلك أم من يدى أم من القبة ؟ قال : فأفحم الراهب فلم يستطع جواباً .

واعلم أن الحُلم بضم الحاء : ما يراه النائم ، تقول منه : حَلَمَ بالفتح واحْتَلَمَ ، وتقول : حَلُمْتُ بكذا وحلمته أيضاً ، والحِلْم بالكسر : الأناة ، تقول منه : حلم الرجل بالضم ، وتحلَّم: تكلّف الحلم ، قال الشاعر :

تحَلَّمْ عن الأَدْنَيْنَ واستبقِ وُدَّهُم ولن تستطيعَ الحِلْمَ حتى تَحَلَّمَا

وتحالم ، أى : رأى من نفسه ذلك وليس به . وحلَّمت الرجل تحليماً : جعلته حليماً . والمحلِّم : الذى يأمر بالحلم . والحَلَمُ بالتحريك : ديدان تفسد [1] الإهاب تقول منه : حَلِمَ الأديمُ بالكسر .

(١) فى المخطوطة : « أن تفسدان » ، والمثبت من ر ، ط .

وينبغى لمن استعان بسفيه أن يأخذ على يديه ، ولا يُطلق عنانه ويسلطه ؛ فإن ذلك فى الغالب يكون ضرره أكثر من نفعه لاسيما بالنسبة إلى الآخرة . وربما انتشر الفساد وعظم ، وتعِبَ الكبيرُ فى استدراكه ، وقد لا يمكنه ذلك ، فَقَطْعُ هذا من الابتداء هو الواجبُ ، وهذا أمر واضح معلوم لا يخفى على عاقل نظر فيه . وقد قال جرير الشاعر المشهور :

أبنى حنيفةَ أَحْكِموا سُفَهَاءكُمْ إنى أخافُ عليكمُ أنْ أغضبا

وسبق ما يتعلق بهذا بكراريس فى ذكر مناقب الإمام أحمد بعد ما يتعلق بطاعة الوالى وغيره ، وفى الأمر بالمعروف فى الإنكار على السلطان .

وذكر ابن عبد البر : عن النبى ﷺ قال : « حَسَبُ المرء دينه ، وكرمه تقواه ، ومروءته عقله » ويروى نحو هذا عن عمر .

وعن النبى ﷺ أنه قال لرجل من ثقيف : « ما المروءةُ ؟ » قال : الصلاحُ فى الدين ، وإصلاح المعيشة وسخاء النفس وصِلَةُ الرحم . فقال عليه السلام : « هكذا هى عندنا فى حكمة آل داود » .

تذاكروا المروءة عند رسولِ اللّه ﷺ فقال : « أما مروءتنا فأنْ نعفو عمن ظلمنا ، ونُعطى مَنْ حَرَمَنا ، ونَصِلَ من قطعنا » .

سئل عبد اللّه بن عمر عن المروءة فقال : العفافُ وإصلاح المال .

سأل معاوية الحسن بن على رضى اللّه عنهم عن المروءة والكرم والنجدة ، فقال : أما المروءة : فَحِفْظُ الرجل نَفْسَهُ ، وإحرازه دينه ، وحسن قيامه بصنعته ، وترك المنازعة ، وإفشاء السلام ، وأما الكرم : فالتبرع بالمعروف ، وإعطاؤك قبل السؤال ، والإطعام فى المحل ، وأما النجدة : فالذَّبُّ عن الجار ، والصبرُ فى المواطن ، والإقدام على الكريهة (١) .

قال طلحة بن عبيد اللّه : جلوسُ الرجل ببابه من المروءة ، وليس من المروءة حَمْلُ الكيس فى الكم .

وسئل الأحنف عن المروءة فقال : التفقه فى الدين ، وبِرُّ الوالدين ، والصبر على النوائب.

ويروى عن الأحنف قال : لا مروءةَ لِكَذُوبٍ ، ولا إخاءَ لِمَلُولٍ ، ولا سؤدد لسيئ الخلق.

(١) ذكر فى هوامش المطبوعات بأن الأثر المروى عن الحسن ساقط من المخطوطة المصرية . وهذا غير صحيح لأن الأثر موجود فى المخطوطة المصرية التى بين أيدينا بكامله .

سئل ابن شهاب الزهرى عن المروءة فقال : اجتناب الريب ، وإصلاح المال ، والقيام بحوائج الأهل . وقال الزهرى أيضاً : الفصاحة من المروءة.

وقال إبراهيم النخعى : ليس من المروءة كثرة الالتفات فى الطريق .

وقال غيره : من كمال المروءة أن تصونَ عِرْضَكَ ، وتكرم إخوانك ، وتَقِيلَ فى منزلك .

وذُكِرَت الفتوةُ عند سفيان الثورى فقال : ليست الفتوةُ بالفسق ولا الفجور ، ولكن الفتوة كما قال جعفر بن محمد : طعامٌ موضوع ، وحجاب مرفوع ، ونائل مبذول ، وبِشْرٌ مقبول ، وعفاف معروف ، وأذى مكفوف .

قال محمد بن داود : من كان ظريفاً فليكن عفيفا . قال منصور الفقيه : فضل التقى أفضل من فضل اللسان والحسب ، إذا هما لم يُجْمَعا إلى العفاف والأدب ، وقال آخر :

وليس فتى الفتيانِ مَنْ راح واغتدى ... لشرب صَبُوح أو لشرب غَبُوقِ
ولكنْ فتى الفتيان مَنْ راح واغتدى ... لِضُرِّ عدوٍ أو لنفع صديق

وروى الخلال عن أحمد وجماعة من السلف الممازحة فى بعض الأوقات ، وحديث ابن عمر مرفوعاً : « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً » .

ولأحمد والترمذى وحَسَّنَهُ من حديث أبى هريرة : « إنى لا أقولُ إلا حقاً »[1] فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا قال : « إنى لا أقول إلا حقاً ». هو حديث ابن المبارك ، عن أسامة بن زيد الليثى ، عن سعيد المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هريرة ، وأسامةُ وإن كان من رجال مسلم فقد ضعفه الأكثر .

وعن أنس أن رجلاً أتى النبى ﷺ فاستحمله فقال : « إنَّا حاملوكَ على ولد الناقة » فقال: يا رسول اللّه، ما أصنعُ بولد الناقة ؟ فقال: « وهل تَلِدُ الإبلَ إلا النُّوقُ » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : صحيح غريب [2] .

ولأبى داود والترمذى عن أنس أن النبى ﷺ قال له : « يا ذا الأذنين »[3] يعنى يُمازحه.

وكان رجل من أهل البادية اسمه زاهر يهدى للنبى ﷺ الهدية من البادية ، فيجهزه إذا أراد

---

(١) أحمد ٢/ ٣٤٠ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩٠) .

(٢) أحمد ٣/ ٢٦٧ ، وأبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المزاح (٤٩٩٨) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩١) .

(٣) أبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المزاح (٥٠٠٢) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩٢) وقال : « هذا حديث صحيح غريب » .

أن يخرج ، فقال : « إنَّ زاهراً بادينا ، ونحنُ حَاضِرَتُه »، وكان دميماً فأتاه النبى ﷺ وهو يبيعُ متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال : أرسلنى ، مَنْ هذا ؟ فالتفت ، فعرف النبىَّ ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه وجعل النبىُّ ﷺ يقول : « مَنْ يشترى العبد » فقال : يا رسول الله إذا واللّه تجدنى كاسداً ؟ فقال : « لكن عند اللّه لست بكاسد ــ أو قال ــ لكن عند اللّه أنت غالٍ » رواه أحمد من حديث أنس (١) .

الدميم بالدال المهملة فى الخَلْق بفتح الخاء : القِصَرُ والقُبْحُ ، وبالذال المعجمة فى الخُلُق بضمها .

وقال محمود بن الربيع: إنى لأعقل مَجَّةً مَجَّها رسولُ اللّه ﷺ . رواه مسلم والبخارى(٢) وزاد : فى وجهى .

قال فى « شرح مسلم » : قال العلماء : المج طَرْحُ الماء من الفم بالتزريق ، وهذا فى ملاطفة الصبيان وتأنيسهم وإكرام آبائهم بذلك ، وجواز المزح .

وروى الترمذى عن زياد بن أيوب، عن عبد الرحمن المحاربى، عن ليث، عن عبد الملك، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً: «لا تمار أخاكَ، ولا تمازحه ولا تَعِدْهُ موعداً فَتُخلفَهُ »(٣). عبد الملك هو ابن جريج لم يسمع من عكرمة . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلاَ من هذا الوجه ، وسبق ما يتعلق بهذا فى فصول الكذب .

وذكر ابن عبد البر قول ابن عباس رضى الله عنهما : المزاح بما يَحْسُنُ مباحٌ ، وقد مزح النبى ﷺ فلم يقل إلا حقاً .

قال غالب القطان : أتيت محمد بن سيرين وكان مزاحاً ، فسألته عن هشام بن حسان فقال : توفى البارحة أما شعرتَ ؟ ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وقال: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا**﴾ [الزمر : ٤٢] .

وفى الحديث المأثور : أنَّ عيسى عليه السلام كان يبكى ويضحك، وكان يحيى عليه السلام يبكى ولا يضحك ، فكان خيرهما المسيح .

وقال الخليل بن أحمد : الناسُ فى سجنٍ ما لم يتمازحوا .

مزح الشعبى يوماً ، فقيل له: يا أبا عمرو، أتمزح ؟ قال : إنْ لم يكن هذا مُتْنَا من الغَمِّ .

---

(١) أحمد ٣/ ١٦١ .

(٢) البخارى فى الدعوات ، ب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم (٦٣٥٤) ، ومسلم فى المساجد ، ب الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣/ ٢٦٥) .

(٣) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المراء (١٩٩٥) .

وكان محمد بن سيرين يداعب ويضحك حتى يسيلَ لعابهُ ، فإذا أَرَدتَه على شيءٍ من دينهِ كانت الثريا أقربَ إليكَ من ذلك .

قال ابن عبد البر : وقد كره جماعةٌ من العلماء الخوضَ فى المزاح لما فيه من ذميم العاقبة ، ومن التوصل إلى الأعراض ، واستجلاب الضغائن ، وإفساد الإخاء . كان يقال : لكل شيءٍ بدْءٌ ، وبَدْءُ العداوةِ المزاحُ . وكان يقال : لو كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر .

قال سعيد بن العاص : لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترئ عليك .

وقال ميمون بن مهران : إذا كان المزاح أمام الكلام ، فآخره الشتم واللطام .

وقال جعفر بن محمد : إياكم والمزاح ، فإنه يذهب بماء الوجه ، كان خالد بن صفوان يكره المزاح ويقول : يسعط أحدهم أخاهُ بأحرَّ من الخردل ، ويفرغ عليه أشَدَّ من غلى المِرْجَل ، ويقول : مازحته .

وقال إبراهيم النخعى : لا يكون المزاح إلا فى سخف أو بطر . السُّخْفُ بضم السين : رقة العقل ، وقد سَخُفَ الرجلُ بالضم سخافة فهو سخيف ، وساخفته مثل : حامقته . قال أبو هفان:

مَازح صديقكَ ما أحَبَّ مزاحا ... وتَوَقَّ منه فى المزاح جماعا
فلربما مزح الصديق بمزحةٍ ... كانتْ لِبَابِ عداوةٍ مفتاحاً

وقال آخر :

لا تَمزحن فإذا مزحت فلا يكن ... مزحاً تُضاف به إلى سوء الأدب
واحذر ممازحة تعودُ عداوةً ... إنَّ المزاح على مقدمة الغضب

وقد روى عن النبى ﷺ : « إياكم وكثرةَ الضحك ؛ فإنه يُميتُ القلبَ ، ويَذهبُ بنور الوجه » (١).

قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ استخف به وذهب بهاؤه .

وقال بعض الحكماء : إياك والمشى فى غير أربٍ ، والضحك من غير سبب . وقال بعض الشعراء :

الكِبْرُ ذُلٌّ ، والتواضع رِفْعةٌ ... والمزح والضحك الكثير سقوط
والحِرْصُ فَقْرٌ والقناعةُ عِزَّةٌ ... واليأسُ من صنع الإله قُنوطُ

(١) أحمد ٢/ ٣١٠ وليس فيه « ويذهب بنور الوجه » ، والترمذى فى الزهد ، ب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب الحزن والبكاء (٤١٩٣) وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

وقال آخر :

فإياك إياك المزاحَ فإنه ... يُجَرِّى عليك الطفْلَ والدَّنِسَ النَّذْلا
ويُذْهِبُ ماءَ الوجهِ بعد بَهَائِهِ ... وَيُورِثُهُ مِنْ بعدِ عِزَّتِهِ ذُلاَّ

وقال محمود الوراق :

تلقَى الفتى يلقى أخاهُ وخِدْنَهُ ... فى لحنِ منطقه بما لا يغفر
ويقول : كنتُ مُمازحاً ومُلاعباً ... هيهاتَ نارُك فى الحشا تَتَسَعَّرُ
ألهبتها وطفقتَ تضحك لاهياً ... مما به ، وفؤاده يَتفطَّرُ
أوَمَا علمتَ ومثل جهلك غالب ... أَنَّ المزاح هو السباب الأكبر

قال الجوهرى : المَزْحُ : الدعابة ، وقد مزح يمزَح ، والاسم المُزاح والمُزاحة أيضاً ، وأما المِزاح بالكسر ، فهو مصدر مازحه . وهما يتمازحان (١) .

قال ابن عبد البر : قالوا : مَنْ أراد أن يدوم له وُدُّ أخيه فلا يمازحه ولا يعده موعداً فيخلفه .

وسَبَقَ الكلامُ فى ضحكه عليه السلام حتى بَدَتْ نَواجذُه فى فصول التوبة فى (أنَّ سيئةَ التائبِ هل تُبَدَّلُ حسنةً) . وقد ضحك المقدادُ بحضرة النبىِّ ﷺ حتى ألقى إلى الأرض ، رواه مسلم (٢) من حديث المقداد فى قصة طويلة فى آدابِ الأطعمة .

وروى ابن الأخضر فيمن روى عن أحمد بإسناده عن أبى مسعود الأصبهانى أحمد بن الفرات قال : كنا نتذاكرُ الأبوابَ ، فخاضوا فى بابٍ ، فجاؤوا فيه بخمسة أحاديث : قال : فجئتهم بسادس ، فنخس أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل فى صدرى لإعجابه به .

وقد قال أبو الفرج فى أوائل « صيد الخاطر » : ما أعرفُ للعالمِ قط لذةً ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة وسلامة أفضل من العزلة ، فإنه ينالُ بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند اللّه عز وجل وعند الخَلْقِ ؛ لأنَّ الخَلْقَ يهونُ عليهم مَنْ يُخالطهم ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا عظم عليهم قَدْرُ الخلفاء لاحتجابهم . وإذا رأى العوام أحدَ العلماء مترخصاً فى أمرٍ مباح هان عندهم فالواجب عليه صيانةُ علمه وإقامةُ قدر العلم عندهم .

فقد قال بعض السلف : كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يُقْتَدى بنا فما أراه يسعنا .

وقال سفيان : تعلموا هذا العلم واكظموا عليه ولا تخلطوه بهزْلٍ فتمجَّه القلوبُ .

---

(١) انظر : اللسان ، مادة « مزح » .

(٢) مسلم فى الأشربة ، ب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥/ ١٧٤) .

فمراعاةُ الناس لا ينبغى أنْ تُنْكَرَ ؛ فقد قال عليه السلام لعائشة : « لولا حدثان قومكِ بكفرٍ لنقضتُ الكعبةَ وجعلت لها بابين » (١) .

وقال أحمد فى الركعتين قبل المغرب : رأيتُ الناسَ يكرهونها فتركتها . فلا نسمع من جاهلٍ يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذه صيانةٌ للعلم ، إلى أن قال : فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية ، فلا ينبغى للعالم أنْ يتبسطَ عند العوام حِفظاً لهم ، ومتى أراد مباحاً فليستترْ به عنهم . وهذا القَدْرُ الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب فقال : يا أميرَ المؤمنين يلقاكَ عُظماءُ الناس ، فما أحسنَ ما لاَحَظَ ، إلا أنَّ عمرَ رضى اللّه عنه أراد به تأديبَ أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال : إنَّ اللّه أعزكم بالإسلام ؛ فمهما (٢) طلبتم العزَّ فى غيره أذلَّكم . والمعنى : ينبغى أنْ يكون طلبكم العزَّ بالدِّينِ لا بصور الأفعال وإنْ كانت الصُّورُ تُلاحظ . انتهى كلامه . وقد سبق هذا المعنى بنحو ثلاث كراريس فى فصول العلم .

فصل مدح الحياء وكونه خلق الإسلام

عن عمران مرفوعاً : « الحياء لا يأتى إلا بخير الحياءُ خيرٌ كله » (٣) .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء يقول : إنك تستحيى ، حتى كأنه يقول : قد أَضَرَّ بكَ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « دعه فإن الحياء من الإيمان » رواهما أحمد والبخارى ومسلم (٤) .

وفى « الصحيحين » أن عمران لما حدَّث ، قال له بشير ــ بفتح الباء الموحدة والشين المعجمة ــ ابن كعب : إنه مكتوبٌ فى الحكمة : إنَّ منه وقاراً ومنه سكينة ، فقال عمران : أحدثك عن رسول اللّه ﷺ وتحدثنى عن صحيفتك ؟(٥)

ولمسلم أن بشيراً قال : إنا لنجد فى بعض الكتب ــ أو الحكمة ــ إن منه سكينة ووقاراً للّه

---

(١) البخارى فى الحج ، ب فضل مكة وبنيانها (١٥٨٣) ، ومسلم فى الحج ، ب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣/ ٣٩٩) .

(٢) فى المخطوطة : « فما » وهو خطأ ، والمثبت من ر ، ط .

(٣) أحمد ٤/ ٤٢٧ ، والبخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٧) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦٠) .

(٤) أحمد ٢/ ١٤٧ ، والبخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٨) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٦/ ٥٩) .

(٥) البخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٧) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦٠) .

ومنه ضَعْفٌ ، بفتح الضاد وضمها ، فغضب عمران حتى احْمَرَّتا عيناه [١] ، وفى بعض النسخ ورواه أبو داود وغيره : احمرت ، وقال : ألا أرانى أحدثك عن رسول اللّه ﷺ وتعارضنى فيه، فأعاد عمران الحديث ، فأعاد بشير ، فغضب عمران [٢] فما زلنا نقول: إنه منا يا أبا نجيد لا بأس به .

وفى « الصحيحين »: عن أبى سعيد قال : كان رسول اللّه ﷺ أشَدَّ حياءً من العذارء فى خِدْرِهَا ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه[٣] . وعن أنس مرفوعاً : « ما كان الفُحْشُ فى شىءٍ إلا شانه، وما كان الحياءُ فى شىء إلا زانه » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى ، وقال: حسن غريب [٤] .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « الحياءُ من الإيمان ، والإيمانُ فى الجنة ، والبَذَاءُ من الجَفَاءِ ، والجفاءُ فى النار » رواه أحمد والترمذى وقال : حسن صحيح [٥] . ولابن ماجه من حديث أبى بكرة مثله [٦] .

وفى « الموطأ » مرسلاً : « إن لكل دين خلقاً وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ » [٧] ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ومن حديث أنس ، والحياء ممدود : الاستحياء .

وقال الواحدى : قال أهل اللغة : الاستحياء من الحياء ، واستحيا الرجل ، من قوة الحياء فيه ؛ لشدة علمه بمواقع العيب .

قال غير واحد : قد يكون الحياء تخلقاً واكتساباً كسائر أعمال البر وقد يكون غريزة ، واستعماله على مقتضى الشرع يحتاج إلى كسب ونية وعلم ، وإن حَمَل شىءٌ على ترك الأمر والنهى والإخلال بحق ، فهو عجز ومهانة ، وتسميته حياء مجاز . وحقيقة الحياء : خُلُقٌ يبعث على فعل الحسن وترك القبيح . واللّه أعلم .

وذكر ابن عبد البر عن سليمان عليه السلام : الحياءُ نظامُ الإيمان ، فإذا انحل النظام ،

---

(١) مسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦١) .

(٢) أحمد ٤/ ٤٤٥ ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى الحياء (٤٧٩٦) .

(٣) أحمد ٣/ ٧١ ، والبخارى فى الأدب ، ب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠٢) ، ومسلم فى الفضائل ، ب كثرة حيائه ﷺ (٦٧/٢٣٢٠) .

(٤) أحمد ٣/ ١٦٥ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى الفحش والتفحش (١٩٧٤) وابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨٥) .

(٥) أحمد ٢/ ٥٠١ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى الحياء (٢٠٠٩) .

(٦) ابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨٤) .

(٧) مالك فى الموطأ فى حسن الخلق ، ب ما جاء فى الحياء ٢ / ٩٠٥ (٩) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨١ ، ٤١٨٢) .

ذهب ما فيه .

وفى التفسير : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف : ٢٦] قالوا : الحياء ، وقالوا : الوقار من اللّه ، فمن رزقه اللّه الوقار فقد وسمه بسيما الخير . وقالوا : من تكلم بالحكمة لاحظته العيون بالوقار .

وقال الحسن : أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بواحدةٍ منهن كان من صالحى قومه: دِينٌ يرشده ، وعقلٌ يسدده ، وحَسَبٌ يصونه ، وحياء يقوده .

وفى « الصحيحين » أو فى « الصحيح » : عن عائشة قالت : رحم اللّه نساء الأنصار لم يَمْنَعهنَّ الحياءُ أنْ يسألن عن أمر دينهن ، وأنْ يتفقهنَ فى الدين (١) .

وقالت أيضاً : رأس مكارم الأخلاق الحياء .

وفى « الصحيحين » عن أبى مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « إنَّ مما أدرك الناسُ من كلامِ النبوة الأولى إذا لم تَسْتَحِى فاصنعْ ما شئتَ » (٢) . وقال حبيب :

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ اللَّيالى ولم تَسْتَحِى فافعلْ ما تشاءُ
فلا واللّه ما فى العيشِ خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقى العودُ ما بقى اللِّحاءُ

وقال أبو دُلَفَ العِجْلِىُّ (٣) :

إذا لم تَصُنْ عِرْضاً ولم تَخْشَ خالقاً ولم تَرْعَ مخلوقاً فما شئتَ فاصنعِ

وقال صالح بن جناح (٤) :

---

(١) البخارى معلقا (الفتح ١/ ٢٢٨) ، ومسلم فى الحيض ، ب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك فى موضع الدم (٣٣٢/ ٦١) .

(٢) البخارى فى الأدب ، ب إذا لم تستحى فاصنع ما شئت (٦١٢٠) ، ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف لمسلم (٩٩٨٢) .

(٣) هو أبو دلف صاحب الكرج وأميرها ، القاسم بن عيسى العجلى حدث عن هشيم وغيره ، وعنه محمد بن المغيرة الأصبهانى ، وكان فارساً شجاعاً مهيبا سائساً ، شاعراً ، مجوداً ، له أخبار فى الكرم والفروسية ، مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٣ ، ٥٦٤] .

(٤) هو صالح بن جناح اللخمى ، شاعر دمشقى ، من الحكماء ، أدرك التابعين تنسب إليه مقطوعات لطيفة ، وله رسالة فى الأدب والمروءة . ومن مقطوعاته :

ألا رب ذى عينين لا تنفعانه وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

[الأعلام ٣/ ١٩٠].

إذا قَلَّ ماءُ الوجه قَلَّ حياؤهُ ولا خيرَ فى وجه إذا قَلَّ ماؤهُ

وقال آخر :

إذا رُزِقَ الفتى وجهاً وَقَاحاً تَقَلَّبَ فى الوجوه كما يشاء

وقال آخر كأنه الفرزدق (١) :

يُغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يُكَلَّم إلا حينَ يبتسم

وقال الأصمعى : سمعت أعرابياً يقول : من كساه الحياء ثوبه لم يَرَ الناسُ عيبه .

فصل فى البصيرة والنظر فى العواقب

كان ملوك فارس يعتبرون أحوال الحواشى بإيفاد التُّحف على أيدى مُسْتَحْسَنَات الجوارى ، ويأمرونهن بالتدريج حتى إذا أطالوا الجلوس فتدبَّ بَوادى الشهوة قتلوا أولئكَ . وإذا أرادوا مطالعةَ عقائد النُّسَّاك دَسُّوا مَنْ يتابعهم على ذَمِّ الدولة ، فإذا أظهروا ما فى نفوسهم استأصلوهم. قال ابن عقيل فى « الفنون » : فينبغى الحَذَرُ من هذه الأحوال ، ومَنْ مَخَضَ الرأىَ كانت زبدته الصواب .

وذكر ابن الجوزى هذا المعنى فى غير موضع ، وذكر من ذلك حكايات وقال : ليحذر الحازمُ من الاشتراك ، وقال : الرجلُ : مَنْ عمل بالحزم وحذِرَ الجائزات ، والأبله : الذى يعملُ على الظواهر ويثق بمن لم يجرب .

وقال أيضاً أبو الفرج فى كتابه « السر المصون » (فصل مهم) : إنما فضِّل العقل على الحس بالنظرِ فى العواقب ، فإنَّ الحسَّ لا يرى إلا الحاضر ، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل على ما يتصور أنْ يقع ، فلا ينبغى للعاقلِ أنْ يغفلَ عن تَلَمُّحِ العواقب .

فمن ذلك أنَّ التكاسلَ فى طلب العلم وإيثار عاجل الراحة يوجب حسرات دائمة لا تَفى لَذَّةُ البطالة بمعشارِ تلك الحسرة ، ولقد كان يجلس إلىَّ أخى وهو عامى فقيرٌ ، فأقول فى نفسى: قد تساوينا فى هذه اللحظة فأين تعبى فى طلب العلم ؟ وأين لذة بطالته ؟

ومن ذلك أنَّ الإنسانَ قد يجهلُ بعض العلم فيستحيى من السؤال والطلب لكبر سنه ولئلا يُرَى بعين الجهل ، فيلقى من الفضيحة إنْ سُئِلَ عن ذلك أضعاف ما آثرَ من الحياء .

ومن ذلك الطبع يُطالب بالعمل بمقتضى الحالة الحاضرة مثل جواب جاهل وقت الغضب ،

(١) البيت للفرزدق فعلا فى مدح على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم .

ثم يقع الندم فى ثانى الحال ، على أن لذة الحلم أوفى من الانتقام ، وربما آثر ذلك الحقد من الجاهل ، فتمكن ، فبالغ فى الأذى له .

ومن ذلك أن يُعادى الناس وما يأمنُ أن يرتفع المُعَادَى فيؤذيه ، وإنما ينبغى أن يضمر عداوة العدو .

ومن ذلك أن يحب شخصاً ، فيفشى إليه أسراره، ثم تقع بينهما عداوة فيظهر ذلك عليه.

ومن ذلك أن يرى المالَ الكثير فينفق ناسياً أنَّ ذلك يَفْنَى ، فيقع له فى ثانى الحال حوائج ، فَيلْقَى من الندمِ أضعاف ما التذَّ به فى النفقة ، فينبغى لمن رُزِقَ مالاً أنْ يَتَصوَّر السنَّ والعَجْزَ عن الكسب ، ويمثل ذهابَ الجاهِ فى الطلب من الناس ، ليحفظَ ما معه .

ومن ذلك أن ينبسط ذُو دولةٍ فى دولته ، فإذا عُزِلَ ندم على ما فعل ، وإنما ينبغى أنْ يتصور العزلَ ويعمل بمقتضاه .

ومن ذلك أنْ يُؤْثرَ لذةَ مَطعمٍ فيشبع ، فيفوته قيامُ الليل ، أو يؤثر لذةَ النوم فيفوته التهجد، أو يأكل أو يجامع بشَرَة فيمرض ، أو يشتهى جِماعَ سوداء وينسى أنها ربما حملت فجاءت ببنتٍ سوداء ، فكم مِنْ حسرةٍ تقعُ له على مدى الزمان كلما رأى تلك البنت . وقد كان فى زماننا مَنْ جامع سوداء فجاءت له بولدٍ فافْتُضِحَ به ، منهم صاحب المخزن ، وقاضى القضاة الدامغانى وكان تاجراً قد ولد له ابن أسود ، فلما رآه قال : لعن اللّه شهوتى .

ومن ذلك اشتغالُ العالم بصورة العلم، وإنما يُرادُ العمل به والإخلاص فى طلبه، فيذهب الزمان فى حُبِّ الصِّيتِ ، وطَلَبِ مدحِ الناس، فيقع الخسران إذا حُصِّلَ ما فى الصدور.

ومن ذلك اقتناعُ العالم بطرفٍ من العلم ، فأين مزاحمة الكاملين والنظر فى عواقب أحوالهم ؟ وقد يُؤْثِرُ الأسهلَ كإيثار علمِ الحديثِ على الفقه ، ومعاناة الدرج تسهل عند العلو .

ومن ذلك الإكثارُ من الجماع ناسياً مَغَبَّته ، وأنه يُضْعفُ البدنَ ويؤذى ، فالطبعُ يرى اللذةَ الحاضرة والعقل يتأمل ، وشرحُ هذا يطولُ لكن قد نبهت على أصوله . ولقد جِئْتُ يوماً من حَرٍّ شديد ، فتعجَّلتُ راحة البرودة فنزعتُ ثوبى فأصابنى زكام أشرفتُ منه على الموت ، ولو صبرتُ ساعةً ربحت ما لقيت ، فَقِسْ كُلَّ لذةٍ عاجلة ودَعِ العقلَ يتلمَّح عواقبها، واللّه أعلم.

وقال أيضاً : تأملت اللذات فرأيتها بين حِسِّىٍّ ومعنوى : فأما الحسياتُ فليست بشىءٍ عند النفوسِ الشريفة ، إنما تُرادُ لغيرها كالنكاح للولدِ ولزوالِ الفضول المؤذية ، والطعام للتغذى والتداوى ، والمال للإعداد وللحوائج والاستغناء عن الخلق ، وإنما جُعلت اللذاتُ فى تحصيلِ هذه الأشياء كالبرطيل حتى يحصلها وإنْ طُلِبَ منها شىءٌ لنفسِ الالتذاذ فإنَّ للطبع حظاً ، إلا

أنَّ كل لذة حسية تلازمها آفاتٌ لا تكاد تفى باللذة ؛ فإنَّ النكاحَ لذةُ ساعةٍ فيلازمه عاجلاً ذهابُ القوة وتَكلُّفُ الغُسْل ومداراةُ المرأة والنفقة عليها وعلى الأولاد ، فاللذة خطفت خطف البرق وما لازمها صواعق. وما يلازمُ المَطْعَمَ معلوم من الطهارة وغير ذلك. ومعلومٌ ما يلازمُ حُبَّ المال من معاناةِ الكسبِ والخوضِ فى الشبهات وصرفِ القلب عن الفكر فى الآخرة شغلاً بالاكتساب، وعلى هذا جميع اللذات الحسية فينبغى أنْ يتناول منها الضرورى ، فتقع معاناة ضرورية فتحصل قناعة بمقدار الكفاية والعفة عن فضول الشهوات .

وإنما اللذةُ الكاملةُ الأمور المعنوية ، وهى : العلمُ والإدراكُ لحقائقِ الأمور ، والارتفاع بالكمال على الناقصين ، والانتقام من الأعداء ، إلا أنه قد تكون لذةُ العفو أطيب ، لأنها لا تقع إلا فى حق ذليل قد قهر ، والصبر على نيل كل فضيلة وعن كل رذيلة ، والملاحظة لعواقب الأمور ، وعلو الهمة فلا تقصر عن بلوغِ غايةٍ تُرادُ بها فضيلةٌ ، ومَنْ علم أنَّ الدنيا تزول ، وأنَّ مراتبَ الناس فى الجنة على قَدْرِ أعمالهم فى الدنيا ، نافس أولئك قبلَ أنْ يصل إلى هناك ليقدم على مفضولين له ، ومَنْ تَفكرَ عَلِمَ أنَّ كثيراً من أهل الجنة فى نَقْصٍ بالإضافة إلى مَنْ هو أعلى منهم ، غير أنهم لا يعلمون بنقصهم قد رضوا بحالهم وإنما اليوم نعلم ذلك ؛ فالبِدار البِدار إلى تحصيل أفضل الفضائل ، واغتنامِ الزمنِ السريع مَرَّة قبل أنْ تجرع شراب الندم الفظيع مُرُّهَ ، وقُلْ لنفسك : أى شىء إلى فلان وفلان من الموتى ، فلهم فَنَافِسْ :

إذا أعجبتك خِصالُ امرىءٍ فَكُنْهُ تَكُنْ مِثْلَ ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

وقال أيضاً : لذات الحس شهوانية ، وكلها معجون بالكدر ، وأما اللذات النفسانية فلا كدر فيها كالأراييج الطيبة والصوت الحسن والعلم . وأعلاهُ معرفةُ الخالق سبحانه ، فمن غلب عليه شهواتُ الحسِّ شاركَ البهائمَ ، ومن غلب عليه شهوات النفس زاحم الملائكة .

وقال أيضاً : تفكرتُ يوماً فرأيتُ أننا فى دار المعاملة والأرباح والفضائل ، فمثلُها كَمَثَلِ مزرعةٍ مَنْ أحْسَنَ بَذْرَها والقيامَ عليها واتفقت الأرض زكية والشرب متوفراً ، كثر الريع ، ومتى اختل شىء من ذلك ، أثَّرَ يومَ الحصاد ، فالأعمال فى الدنيا منها فرض وقد وقع فيه تفريط كثير من الناس ، ومنها فضيلة وأكثرُ الناس متكاسلٌ عن طلب الفضائل .

والناس على ضربين : عالم يغلبه هواه فيتوانى عن العمل ، وجاهل يظن أنه على الصواب ، وهذا الأغلب على الخلق ؛ فالأميرُ يُراعى سلطنته ولا يبالى بمخالفة الشرع ، أو يرى بجهله جوازَ ما يفعله ، والفقيه همَّتُهُ ترتيبُ الأسئلة ليقهرَ الخصم ، والقاصُّ همته تزويقُ الكلام ليعجب السامعين ، والزاهدُ مقصودُه تزيينُ ظاهره بالخشوع لِتُقَبَّلَ يَدُهُ ويتبرك به ، والتاجرُ

يُمْضى عمره فى جَمْعِ المال كيف اتفق ففكره مصروفٌ إلى ذلك عن النظرِ إلى صحة العقود ، والمغرى بالشهوات منهمكٌ على تحصيلِ غرضه تارةً بالمطعم وتارة بالوطء وغير ذلك ، فإذا ذهب العمرُ فى هذه الأشياء ، وكان القلب مشغولاً بالفكر فى تحصيلها ، فمتى تتفرغ لإخراج زيفِ القصدِ من خالصه ، ومحاسبة النفس فى أفعالها ، ودفع الكدر عن باطن السر ، وجمع الزادِ للرحيلِ ، والبدار إلى تحصيل الفضائل والمعالى ؟

فالظاهرُ قدوم الأكثرين على حسرات ، إما فى التفريط للواجب أو للتأسف على فوات الفضائل ، فاللّه اللّهَ يا أهلَ الفهم ، اقطعوا القواطع عن المهم قبل أن يقع الاستلاب بغتةً على شتاتِ القلب وضياع الأمر .

فصل

لما صعد أبو الفرج ابن الجوزى رحمه اللّه من واسط إلى بغداد فى سنة خمس وتسعين خُلِعَ عليه ، وجلس للناسِ يومَ السبت ، وأحْسَنَ الكلامَ ، وكان مما أنشده قول الرضى الموسوى :

لا تُعْطِشِ الرَّوْضَ الذى نَبْتُه ... بِصَوْبِ إنعامكَ قد رُوِّضَا
لا تَبْرِ عوداً أنتَ قد رِشْتَهُ ... حاشا لبانى المجد أن يَنْقُضَا
إنْ كان لى ذَنْبٌ تَجَرَّمْتُهُ ... فاستأنفِ العفو وهَبْ ما مضى
قد كنتُ أرجوك لنيلِ المنى ... فاليوم لا أطلبُ إلا الرضا

ثم أنشد أيضاً

شقينا بالنوى زمناً فلما ... تلاقَيْنَا كأنَّا ما شقينا
سخطنا عندما جنت الليالى ... وما زالتْ بنا حتى رَضينَا
ومن لم يَحيَ بعد الموت يوماً ... فإنَّا بعدَ ما متنا حَيِينَا

فصل : إنكار أحمد للتبرك به ، وتواضعه وثناؤه على معروف الكرخى

روى الخلال فى « أخلاق أحمد » : عن على بن عبد [الصمد] (١) الطيالسى قال : مسحت يدى على أحمد بن حنبل ، ثم مسحت يدى على بدنى وهو ينظر ، فغضب غضباً شديداً وجعل ينفض يده ، ويقول : عَمَّنْ أخذتم هذا ؟ وأنكره إنكاراً شديداً .

وقال المروذى فى كتاب « الورع » : سمعت أبا عبد اللّه يقول : قد كان يحيى بن يحيى أوصى لى بِجُبَّتِه ، فجاءنى بها ابنه ، فقال لى ، فقلت : رجلٌ صالح قد أطاع اللّه فيها ،

(١) ساقطة من المخطوطة ، والمثبت من ر ، ط .

أتبرَّكُ بها ، قال : فذهب فجاءنى بمنديل ثياب فرددتها مع الثياب .

وقال محمد بن الحسن بن هارون : رأيت أبا عبد اللّه إذا مشى فى طريق يكره أن يتبعه أحد ، يعنى: الإمام أحمد. قال عبد الكريم بن الهيثم أبو يحيى القطان العاقولى : قال أبو بكر الخلال جليل القدر قال : وأخبرنى أنه قال : كنتُ مع أحمد جعلت أتأخر عنه فى الصف إجلالاً له ، فوضع يده على يدى ، فقدمنى إلى الصف .

وقال محمد بن داود المِصِّيصى [1]: كنا عند أحمد بن حنبل وهم يذكرونَ الحديثَ ، فذكر محمد بن يحيى النيسابورى حديثاً فيه ضَعْفٌ فقال له أحمد : لا تذكُرْ مثلَ هذا ، فكأنَّ محمد ابن يحيى دخله خجلة ، فقال له أحمد : إنما قلت هذا إجلالاً لك يا أبا عبد اللّه .

وعن أحمد أنه قال : كان معروف الكرخى من الأبدال ، مُجَابَ الدعوة ، وذكر فى مجلس أحمد ، فقال بعض مَنْ حَضَرَ : هو قصير العلم ، فقال له أحمد : أمْسِكَ عافاكَ اللّهُ، وهل يُرادُ من العلم إلا ما وصلَ إليه معروف .

وقال عبد اللّه : قلتُ لأبى : هل كان مع معروف شىءٌ من العلم ؟ فقال لى : يا بنى ، كان معه رأس العلم : خشية اللّه تعالى . وقد أثنى معروف على الإمام أحمد ، وقال : سمعتُ منه كلمتين أزعجتانى : مَنْ علم أنه إذا مات نسىَ ، فليحسن ولا يسىء .

فصل فى دعاء المظلوم على ظالمه وشىء من مناقب أحمد

قال هشام بن منصور : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : تدرى ما قالَ لى يحيى بن آدم ؟ قلتُ لا ، قال : يجيئنى الرجلُ ممن أبغضه وأكره مجيئه ، فأقرأ عليه كل شىء معه حتى أستريحَ منه ، ويجىء الرجل الذى أوَدُّهُ فأرده حتى يرجعَ إلىَّ .

وقال يحيى بن نعيم : لما خرج أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل إلى المعتصم يوم ضُرِبَ ، قال له الملعون الموكلُ به : ادْعُ على ظالمك ، قال : ليس بصابرٍ مَنْ دعا على ظالمه ، يعنى الإمام أحمد أنَّ المظلومَ إذا دعا على مَنْ ظلمه فقد انتصرَ ، كما رواه الترمذى من رواية أبى حمزة عن إبراهيم ، عن الأسود عن عائشة مرفوعاً : « مَنْ دعا على مَنْ ظلمه فقد انتصر » [2] قال الترمذى : حديثٌ لا نعرفه إلا من حديث أبى حمزة [3] وهو ميمون الأعور ، ضَعَّفُوه لاسيما فيما رواه عن إبراهيم النخعى ، وإذا انتصر فقد استوفى حقه وفاته الدرجةُ العليا .

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [الشورى : ٤١ ــ ٤٣] .

---

(١) جاء فى أ ، ر ، ط : « أحمد بن داود المصيصى » ، وهو خطأ انظر : تهذيب التهذيب ٩ / ١٥٤ .

(٢) الترمذى فى الدعوات ، ب من دعاء النبى ﷺ (٣٥٥٢) .

(٣) فى المخطوطة : « حمزة » ، وفى الترمذى : « أبى حمزة » وهو الصحيح .

وقال ابن الزاغونى : رأيتُ فى المنام كأنى أمضى إلى قبر الإمام أحمد فإذا به جالسٌ على قبره وهو شيخٌ كبير السن ، فقال لى : يا فلان ، قَلَّ أنصارنا ، ومات أصحابنا ، ثم قال لى : إذا أردتَ أنْ تُنْصَرَ فإذا دعوتَ فقل : يا عظيم ، يا عظيمَ كُلِّ عظيمٍ ، وادْعُ بما شئتَ تُنْصر .

وقال يحيى بن أكثم : ذكرت لأحمد بن حنبل يوماً بعض إخواننا وتَغَيُّرَهُ علينا ، فأنشأ أبو عبد اللّه يقول :

وليس خليلى بالمَلُولِ ، ولا الذي ... إذا غِبْتُ عنه باعنى بخليلِ
ولكن خليلى مَنْ يدومُ وِصالُهُ ... ويحفظُ سِرِّي عند كل خليلِ

ونقل غيره عن أحمد أنه كان يقول :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سوء فى مغبَّتها ... لا خيرَ فى لذةٍ مِنْ بعدها النارُ

وقد رأيت هذين البيتين لمسعر بن كدام [1] الإمام المشهور .

قال ابن عبد البر فى كتاب « بهجة المجالس » : كان المتمنى بالكوفة إذا تَمَنَّى يقول : أتمنى أنْ يكونَ لى فقهُ أبى حنيفة ، وحِفْظُ سفيان وورع مِسْعَر بن كدام ، وجواب شريك .

وقال أبو عبد اللّه بن أبى هشام يوماً عند أحمد فذكروا الكُتَّاب ودقة ذهنهم فقال : إنما هو التوفيق .

وقال عبد اللّه بن أحمد : ولد لأبى مولودٌ ، فأعطانى عبدُ الأعلى رقعةً إلى أبى يهنئه ، فرمى بالرقعة إلىَّ ، وقال : ليس هذا كتاب عالمٍ ولا مُحَدِّثٍ ، هذا كتابُ كاتب .

وقال أحمد : أقامت أمُّ صالح معى عشرينَ سنة ، فما اختلفتُ أنا وهى فى كلمة.

وقال المروذى : دخلت يوماً على أحمد فقلتُ : كيف أصبحتَ ؟ قال : كيف أصبح مَنْ رَبُّهُ يطالبه بأداء الفرائض ، ونَبِيُّهُ يطالبه بأداء السنة ، والمَلَكان يطالبانه بتصحيح العمل ، ونَفسُه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاء ، ومَلَكُ الموت يطالبه بقَبضِ روحه ، وعياله يطالبونه بنفقتهم ؟!

---

(١) هو : مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيد بن الحارث ، الإمام الثبت ، شيخ العراق ، أبو سلمة الهلالى الكوفى، الأحول ، الحافظ ، روى عن : عدى بن ثابت ، وعمرو بن مرة ، والحكم بن عتيبة وغيرهم ، وروى عنه : سفيان بن عيينة ، ويحيى القطان ، وسليمان التيمى وغيرهم ، قالوا عنه : ما رأيت أحداً أثبت من مسعر ، وقال أحمد بن حنبل : الثقة كشعبة ومسعر ، توفى فى رجب سنة خمس وخمسين ومائة . [سير أعلام النبلاء ٧/ ١٦٣ ــ ١٧٣] .

وقال رجل لبشر بن الحارث : يا أبا نصر ، إنى واللّه أُحبُّكَ ، فقال : وكيفَ لا تُحبنى ولستَ لى بجارٍ ولا قرابة .

وقال إبراهيم بن جعفر : قلتُ لأحمدَ بن حنبل : الرجل يبلغنى عنه صلاحٌ ، أفأذهبُ أصلى خلفه ؟ قال لى أحمد : انظر إلى ما هو أصلح لقلبك فافعله .

فصل فى الاستخارة وهل هى فيما يَخْفَى أو فى كلِّ شىء

قال جعفر بن الصانغ : سمعت أبا عبد اللّه أحمد بن حنبل يقول : كل شىء من الخير يُبَادَرُ به .

وقال محمد بن نصر العابد : سمعت أحمد بن حنبل يقول : كل شىء من الخير يبادر فيه. قال : وشاورته فى الخروج إلى الثغر ، فقال لى : بادر بادر . وهذا يحتمل أنه لا استخارةَ فيه كما قاله بعض الفقهاء لظهور المصلحةِ ، ويحتمل أن مراده بعد فعل ما ينبغى فِعلُهُ من صلاة الاستخارة وغيره .

وقول جابر : كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها . حديث صحيح رواه البخارى وغيره (١) .

وقد استخارتْ زينب لما أراد النبىُّ ﷺ أن يتزوجها ، قال فى « شرح مسلم » : فيه استحبابٌ صلاةِ الاستخارةِ لمن هَمَّ بأمرٍ سواء كان الأمر ظاهر الخير أم لا . قال : ولعلها استخارت لخوفها من تقصيرها فى حقه ﷺ .

وقال شيخ الإسلام عبد اللّه بن محمد الأنصارى : أخبرنا أحمد بن على الأصبهانى أحفظُ مَنْ رأيتُ من البشر ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم القطان، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن خالد الصنعانى ، حدثنى عمر بن عبد الرحمن ، سمعت وهب بن منبه يقول : قال داود : يارب ، أىُّ عبادكَ أبغضُ إليك ؟ قال : عَبْدٌ استخارنى فى أمر فَخِرْتُ له فلم يَرْضَ . الظاهر أنه إسناد حسن .

وقال الخلال فى الأدب (كراهة العجلة فى الأمور) : وروى عن عبد اللّه بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع ، سمعت مالك بن أنس عابَ العَجَلَةَ فى الأمور، ثم قال : قرأ ابن عمر البقرة فى ثمان سنين . وظاهر هذا من الخلال مخالفته لما تقدم.

وقد قال أبو داود : حدثنا الحسن بن محمد الصبَّاح ، حدثنا عفَّان ، حدثنا عبد الواحد ،

---

(١) البخارى فى التوحيد ، ب قول الله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ** ﴾ (٧٣٩٠) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ، ب ما جاء فى صلاة الاستخارة (١٣٨٣) .

حدثنا سليمانُ الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، قال الأعمش : وقد سمعتهم يذكرون عن مصعب بن سعد ، عن أبيه . قال الأعمش : ولا أعلمه إلا عن النبيِّ ﷺ قال : « التؤدةُ فى كل شىء إلا فى عمل الآخرة » (١) كلهم ثقات .

واتَّأَدَ فى مشيه وتَوَأَدَ فى مشيه وهو افتعل وتفعل من التؤدة وأصل التاء فى « اتئد » واو ، يقال : اتَّئِدْ فى أمرك .

وقد سبق التثبت والتأنِّى فى الفتيا فى فصولِ العلم ، وقول مالك : إنه نوع من الجهل والخرق ، وما رواه البيهقى وغيره عن سعد بن سنان وهو ضعيف عندهم وحسن له الترمذى عن أنس مرفوعاً : « التأنى من اللّه ، والعجلة من الشيطان » (٢) . وذكرت فى مكان آخر ما فى الصحيح عن النبىِّ ﷺ : « إن اللّه رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ » (٣) وقوله : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخيرَ » (٤) .

فصل فى حقيقة الزهد

قال الخلال : بلغنى أنَّ أحمدَ سُئِلَ عن الزاهد يكونُ زاهداً ومعه مائة دينار ؟ قال : نعم على شريطة إذا زادتْ لم يفرح ، وإذا نقصت لم يحزن . قال : وبلغنى أنَّ أحمد قال لسفيان : حُبُّ الرياسة أعجبُ إلى الرجل من الذهب والفضة ، ومَنْ أحَبَّ الرياسةَ طلب عيوبَ الناس [أو عابَ الناسَ] (٥) أو نحو هذا .

قال أبو طالب : سئل أحمد وأنا شاهد : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : قصر الأمل والإياس مما فى أيدى الناس . وفى « الصحيحين » عن النبىِّ ﷺ : « إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نَفْس بُورِكَ له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع » (٦) .

وعن أبى ذر مرفوعاً : « ليس الزهادةُ فى الدنيا بتحريمِ الحلالِ ، ولا إضاعةِ المال ، ولكنَّ الزهد أن تكون بما فى يد اللّه أوثقَ منكَ بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبةِ إذا أُصبْتَ بها

(١) أبو داود فى الأدب ، ب فى الرفق (٤٨١٠) ، والحاكم فى الإيمان ١/ ٦٢ .

(٢) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى التأنى والعجلة (٢٠١٢) ، وقال : « هذا حديث غريب » ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٦٧) .

(٣) البخارى فى الاستتابة ، ب إذا عرّض الذمى أو غيره بسب النبى ﷺ ولم يصرح (٦٩٢٧) ، ومسلم فى السلام ، ب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٥/ ١٠) كلاهما عن عائشة .

(٤) مسلم فى البر والصلة ، ب فضل الرفق (٢٥٩٢/ ٧٤) عن جرير بن عبد الله .

(٥) سقط من المخطوطة ، وهو فى أ ، ر ، ط .

(٦) البخارى فى الزكاة ، ب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢) ، ومسلم فى الزكاة ، ب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٥/ ٩٦) .

أرغبَ منك فيها لو أنها نُفِيَتْ عنك » (١) ، لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٣] .

رواه الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمرو بن واقد مُنْكَرُ الحديث، يعنى الذى فى إسناده وكذا قال البخارى : مُنْكَرُ الحديث ، وقال النسائى والدارقطنى : متروك، وضعفه أيضاً غيرهم ، ورواه ابن ماجه من حديثه (٢) .

قال الشيخ تقى الدين : إذا سلم فيه القلب من الهلع ، واليد من العدوان ، كان صاحبه محموداً وإنْ كان معه مالٌ عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهداً أزهد من فقيرٍ هَلُوعٍ ، كما قيل للإمام أحمد وذكر ما سبق فى أول الفصل ، وذكر الخبرين السابقين وما رواه الترمذى وحَسَّنَهُ وإسناده جيد عن الحسن ، عن أبى سعيد مرفوعاً : « التاجرُ الصَّدُوقُ الأمينُ مع النبيين والصديقين والشهداء » (٣) .

وعن سفيان أنه قيل له : يكونُ الرجل زاهداً وله مالٌ ؟ قال : نعم ، إن ابْتُلِىَ صبر ، وإن أُعطىَ شكر .

وقال سفيان : إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحبُ سنة وبالمغرب صاحب سنة ، فابعث إليهما بالسلام وادْعُ اللّهَ لهما ، فما أقَلَّ أهلَ السنة والجماعة ! .

قال القاضى أبو يعلى : وذكر أبو القاسم القشيرىُّ فى كتاب « الرسالة » إلى الصوفية : وقال أحمد بن حنبل : الزهدُ على ثلاثة أوجه : تَرْكُ الحرام وهو زُهْدُ العوام ، والثانى : تركُ الفضول من الحلال وهو زهدُ الخواص ، والثالث : تركُ ما يشغل العبدَ عن اللّه عز وجل وهو زهدُ العارفين .

قال : وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن عمر الحافظ : سمعت أبا سهل ابن زياد يقول : سمعت عبد اللّه بن أحمد يقول : سئل أبى ما الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى . وقال أبو العتاهية : قد قلتُ عشرينَ ألف بيت فى الزهد ووددتُ أنَّ لى الأبيات الثلاثة التى لأبى نواس :

يا نُواسىُّ تَوَقَّـــرْ ... وتَعَـــزَّرْ وتَصَبَّرْ
إنْ يَكُنْ ساءك دَهْرٌ ... فَلَمَـا سَـرَّكَ أكثرْ
يا كثير الذنب عفــو ... اللهِ من ذنبك أكبرْ

---

(١) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا (٢٣٤٠) .
(٢) ابن ماجه فى الزهد ، ب الزهد فى الدنيا (٤١٠٠) .
(٣) الترمذى فى البيوع،ب ما جاء فى التجار وتسمية النبى ﷺ إياهم (١٢٠٩) وقال:«هذا حديث حسن » .

ورأى بعض إخوان أبى نواس له فى النوم بعد موته بأيام ، فقال له : ما فعلَ اللّهُ بك ؟ قال: غفر لى بأبيات قلتها وهى الآن تحتَ وسادتى . فنظروا فإذا برقعة تحت وسادته فى بيته مكتوبٌ فيها :

يا رب إنْ عَظُمَتْ ذُنوبى كَثْرَةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إنْ كان لا يرجوك إلا مُحْسنٌ ... فمن الذى يدعو إليه المجرم
أدعوك رَبِّ كما أمرتَ تَضَرُّعاً ... فإذا رَدَدْتَ يدى فَمَنْ ذا يرحمُ
ما لى إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميلُ ظَنِّىَ ، ثم أنِّىَ مسلمُ

وروى عن الإمام أحمد أنه سُئِلَ عن الزُّهْدِ ، قال : قِصرُ الأمل . ورواه فى موضع آخر عن سفيان ، عن الزهرى أنه قال ذلك .

وقال عبد اللّه بن أحمد : حدثنى أبى : سمعت سفيان يقول : ما ازدادَ رجلٌ عِلْماً فازدادَ من الدنيا قرباً إلا ازدادَ من اللّه بُعْداً .

وقال أحمد بن عبد اللّه بن خالد بن ماهان المعروف بابن أسد : سُئِلَ أحمد بن حنبل عن مسألة فى الورع ، فقال : أنا أستغفر اللّه ، لا يحلُّ لى أنْ أتكلَّمَ فى الورع ، وأنا آكلُ من غلَّةِ بغداد ، لو كان بِشْرُ بن الحارث صلحَ أنْ يُجيبكَ عنه ، لأنه كان لا يأكلُ من غلة بغداد ، ولا من طعامِ السوادِ . ذكره ابن الأخضر فى « من روى عن أحمد » .

وروى الترمذى عن زيد بن أخزم ، عن إبراهيم بن أبى الوزير ، عن عبد اللّه بن جعفر المخرمى ، عن محمد بن عبد الرحمن بن نبيه ، عن ابن المنكدر ، عن جابر قال : ذُكِرَ رجلٌ عند النبىِّ ﷺ بعبادة واجتهاد ، وذُكِرَ آخرُ بِرِعَة فقال النبىُّ ﷺ : « لا يعدلُ بالرِّعَةِ شىءٌ » (١) ابن نبيه تَفَرَّدَ عنه المخرمى وباقيه جيد ، قال الترمذى : غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وروى الخلال عن الفضيل قال : علامةُ الزُّهْد فى الناس إذا لم يحبَّ ثناءَ الناس عليه ، ولم يُبالِ بمذمَّتهم ، وإن قَدرتَ ألا تُعْرَفَ فافعل ، وما عليك ألاَّ يُثْنَى عليك ، وما عليك أنْ تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند اللّه عز وجل ، ومَنْ أحَبَّ أن يُذْكَرْ لم يُذْكَرْ ، ومن كَرِهَ أن يُذكرَ ذُكِر .

وقال إسحاق بن بنان : قال أحمد : سمعته يقول ــ يعنى بشراً ــ : قال إبراهيم بن أدهم: ما صَدَقَ اللّهَ عبدٌ أحَبَّ الشهرة .

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٦٠ (٢٥١٩) ، والرعة : الورع .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : مَنْ بُلِىَ بالشهرة لم يأمن أن يفتنوه ؛ إنى لأُفكِّر فى بدء أمرى ، طلبتُ الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة .

قال ابن عقيل فى « الفنون » : هجرانُ الدنيا فى عصرنا هذا ليس من الزهد فى شىءٍ وإنما المنقطعُ آنف من الذل ؛ فإنَّ مخالطةَ القُذراء قذارة ، والتخلى عنهم نزاهة ، ومَنْ طَلَّقَ عجوزاً مُنَاقرةً فلا عجب .

وقال : ما قَطَعَ عن اللّه وحَمَلَ النفسَ على محارمِ اللّه ، فهو الدنيا المذمومةُ ، وإنْ كان إملاقاً وفقراً ، وما أوْصَلَ إلى طاعةِ اللّه فذاك ليس بالدنيا المذمومةِ وإنْ كان إكثاراً .

وقال : الواجبُ شكرها من حيث هى نعمةُ اللّه وطريقٌ إلى الآخرة وذريعةٌ إلى طاعة اللّه، وكلُّ خيرٍ يعود بالإفراطِ فيه شَرًّا ، كالسخاء يعود إسرافاً ، والتواضع يعود ذلاً ، والشجاعة تعود تهوراً . وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [النحل: ٩٧]. قال : القناعة.

قال ابن عقيل : لو علمتَ قَدْرَ الراحة فى القناعة والعز الذى فى مدارجها علمت أنها العيشةُ الطيبة ، لأنَّ القَنُوعَ قد كُفِىَ تَكَلُّبَ طِباعه ، والطَّبْعُ كالصبيان الرُّعْن ، ومَنْ بُلِىَ بذلك أذهب وقته فى أخَسِّ المطالب ، وفاتته الفضائل ، فأصبح كمربى طفلٍ ، يتصابى له ويجتهد فى تسكينِ طباعه تارةً بلعبةٍ تُلهيه ، وتارة بشهوة ، وتارةً بكلامِ الأطفال ، ومَنْ كان دأبه التصابى متى يذوقُ طعم المرجلة ، ومَنْ كان فى طبعه كذا فمتى يستعملُ عقله ؟! قال ابن عقيل: والحياة الطيبة التفويضُ إلى اللّه ، كالصبى حال التربية يفوض أمره إلى والديه ويثق بهما مستريحاً من كَدِّ التخير ، فلا يتخير لنفسه مع تفويضه إلى مَنْ يختار له ، المُفَوِّضُ وَثِقَ بالمُفَوَّضِ إليه . قال ابن عقيل: وعندى أنها فى الجنة، أعنى الحياة الطيبة؛ لأن الطيب الصافى والصفاء فى الجنة.

وقال أيضاً : مِنْ عجيبِ ما نقدت أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خرابِ الديار ، وموتِ الأقارب والأسلافِ ، والتحسر على الأرزاق بذم الزمان (١) وأهله ، وذكر نكد العيش فيه ، وقد رَأَوْا من انهدام الإسلام ، وشعث الأديان ، وموت السنن ، وظهور البدع ، وارتكاب المعاصى ، وتقضى [العمر] (٢) فى الفارغ الذى لا يُجْدى ، فلا أحد منهم نَاحَ على دينه ، ولا بكى على فارط عمره ، ولا تأسَّى على فائتِ دهره ، ولا أرى لذلك سبباً إلا قِلَّةَ مبالاتهم بالأديان ، وعِظَمَ الدنيا فى عيونهم ، ضد ما كان عليه السلف الصالح : يرضون بالبلاغ ، وينوحون على الدين . انتهى كلامه .

---

(١) فى المخطوطة : « الدنيا » .

(٢) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .

وقد تقدم فى أول فصول طلب العلم حديث : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها » (١) .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (٢) .

وعن عائشة مرفوعاً : « الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ له ، ولها يَجْمَعُ مَنْ لا عقلَ له »(٣) .

وأخذ ابنٌ لعمر خاتماً فأدخله فى فيه فانتزعه عمرُ منه ثم بكى عمر وعنده نفرٌ من المهاجرين الأولين ، فقالوا له : لِمَ تبكى وقد فتحَ اللّهُ لكَ وأظهركَ على عدوك وأقَرَّ عينك ؟ فقال عمر : إنى سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : « لا تُفْتَحُ الدنيا على أحدٍ إلا ألقى اللّهُ عَزَّ وجلَّ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة » (٤) وأنا مشفقٌ من ذلك .

وعن الضحاك بن سفيان أنَّ النبىَّ ﷺ قال له : « يا ضَحَّاك ما طعامك ؟ » قال : اللحمُ واللبن ، قال : « ثم يصير إلى ماذا ؟ » قال : إلى ما قَدْ علمتَ ، قال : « فإنَّ اللّه عز وجل ضرب ما يَخْرُجُ من ابنِ آدمَ مَثَلاً للدنيا » (٥) .

وعن أبىّ بن كعب مرفوعاً : « إنَّ مطعم ابن آدم مَثَلٌ للدنيا ، وإنْ قزحه وملحه فانظر إلى ماذا يصير ؟ » (٦) .

وعن مُطَرِّفِ بن الشِّخِّير ، عن رجل من الصحابة كان بالكوفة أميراً فخطب يوماً فقال : إن إعطاء هذا المالَ فتنة ، وإن إمساكه فتنة ، وبذلك قام رسول اللّه ﷺ فى خطبته حتى فرغ ، ثم نزل (٧) . إسناده جيد .

وعن أبى موسى مرفوعاً : « مَنْ أحب دنياه أضَرَّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى » (٨) .

وعن أبى مالك الأشعرى مرفوعاً : « حلوةُ الدنيا مُرَّةُ الآخرة ، ومرةُ الدنيا حلوة الآخرة»(٩) .

وعن معاذ أنَّ النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : « إيَّاكَ والتَّنَعُّمَ ، فإنَّ عبادَ اللّه ليسوا

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) مسلم فى الزهد والرقائق ، ب فى الزهد والرقائق (٢٩٥٦/١) .
(٣) أحمد ٧١/٦ .
(٤) أحمد ١٦/١ .
(٥) أحمد ٤٥٢/٣ .
(٦) أحمد ١٣٦/٥ .
(٧) أحمد ٥٨/٥ .
(٨) أحمد ٤١٢/٤ ، والبيهقى فى السنن ٣/ ٣٧٠ .
(٩) أحمد ٣٤٢/٥ .

بالمتنعمين » [١] .

وعن معاوية مرفوعاً : « إن ما بقىَ من الدنيا بلاءٌ وفتنة » [٢].

وعن ابن مسعود مرفوعاً : أنه نهى عن التَّبَقُّر فى الأهل والمال [٣] . التبقر : التَّوسُّع ، وأصله من البَقْر : الشق .

وعن عتبة بن عبد السلمى مرفوعاً : « لو أنَّ رجلاً يُجَرُّ على وجههِ من يومِ وُلِدَ إلى يوم يموتُ هرماً فى مرضاة اللّه تعالى ، لحقره يوم القيامة » [٤] رواهن أحمد .

وأنشد ابن هبيرة الوزير الحنبلى لنفسه :

يَلَذُّ بِذِى الدنيا الغنىُّ ويَطْرَبُ ... ويزهدُ فيها الألمعىُّ المُجَرِّبُ
وما عرفَ الأيامَ والناسَ عاقلٌ ... ووُفِّقَ إلاَّ كان فى الموتِ يَرغبُ
إلى اللّه أشكو همَّةً لعبتْ بها ... أباطيلُ آمالٍ تَغُرُّ وتَخْلُبُ
فواعجباً من عاقلٍ يعرف الدُّنا ... فيصبح فيها بعد ذلك يرغب

وأنشد أيضاً :

الحمدُ للّه هذى العين والأثرُ ... فما الذى باتّباع الحقِّ ينتظر ؟
وقتٌ يفوتُ وأشغالٌ معوقةٌ ... وضعفُ عزمٍ ودارٌ شأنها الغِيَرُ
والناسُ رَكْضى إلى مأوى مَصارِعهم ... وليس عندهم مِنْ ركضهم خَبَرُ
تسعى بهم حادثاتٌ من نفوسهم ... فيبلغون إلى المَهْوى وما شعروا
والجهلُ أصلُ فسادِ الناس كلهم ... والجهلُ أصلٌ عليه يُخْلَقُ البشر

فى أبيات ذكرها وأنشد أيضاً :

يا أيها الناسُ إني ناصحٌ لكمُ ... فَعُوا كلامى فإنى ذو تَجَاريبِ
لا تُلْهِيَنَّكُمُ الدنيا بزهرتها ... فما تدومُ على حُسْنٍ ولا طِيبِ

وأنشد أيضاً :

---

(١) أحمد ٥/ ٢٤٣ ، وسنده ضعيف لضعف بقية .

(٢) ابن ماجه فى الفتن ، ب شدة الزمان (٤٠٣٥) ،قال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات »

(٣) أحمد ١/ ٤٣٩ .

(٤) أحمد ٤/ ١٨٥ .

إذا قَلَّ مالُ المرء قَلَّ صديقهُ وقُبِّحَ منه كُلُّ ما كان يَجْمُلُ

وأنشد :

والوقتُ أنفسُ ما عُنِيتُ بحفظهِ وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

وقد قال ابن هانئ (١) الشاعر فى قصيدته التى يرثى فيها ولده :

حكْمُ المنيةِ فى البرية جارِ ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسانُ فيها مُخْبَراً حتى يُرى خبراً من الأخبار
طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صفواً من الأقذارِ والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِباعها مُتَطَلِّبٌ فى الماء جَذْوَةَ نارِ
العيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ سارِ
ليس الزمانُ وإنْ حَرَصْتَ مساعداً خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرارِ

ومنها :

وتَلَهُّبُ الأحشاء شَيَّبَ مَفْرِقي هذا الضياءُ شُواظُ تلك النارِ
لا حَبَّذَا الشيبُ الوفيُّ وحبذا شَرْخ الشبابِ الخائن الغدارِ
وَطَرِي من الدنيا الشبابُ ورَوْقُهُ فإذا انقضى فقد انقضت أوطارى

ومنها :

ذهب التكَرُّمُ والوفاءُ من الورى وتَصَرَّمَا إلا مــن الأشعـارِ

وكان الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه اللّه تعالى يتمثل كثيراً بالبيت الثالث والرابع ، وذكرهما القاضى السُّروجىُّ الحنفىُّ فى شرحه فى الجنائز فى المصاب ، ولابن هانىء أيضاً مما قد يتعلق بغير هذا الموضع :

لا أنـتَ عند اليُسْرِ مـن زُوَّارِه يوماً ولا فى العُسْرِ من عُوَّاده

وله منها :

أفدي الكتابَ بناظرى ، فبياضُه بـبـيـاضِه ، وسـوادُه بـسـوادِه

وله :

قد كان يرجفُ فى ليالى وَصْلِه قلبى فكيف يكونُ يومَ صُدوده

(١) سها المصنف وعزا القصيدة لابن هانئ ، وهى لأبى الحسن على بن محمد التهامى .

وله :

كم عاهد الدمعُ لا يُغْري بجريتهِ الـ ـواشى فلما اسْتَقَلَّتْ ظعْنُهُمْ غَدَرا

وللترمذى وحَسَّنَهُ : عن عبد الرحمن بن عوف قال : ابتُلِينَا مع رسولِ اللّه ﷺ بالضَّرَّاءِ فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسَّراءِ بعده فلم نصبر (١) .

فصل فى أخبار العابدات والعابدين والزهاد

قال الحسن بن الليث الرازى : قيل لأحمد : يَجيئُكَ بِشْرٌ ، يَعْنُون : ابن الحارث ؟ قال : تعنون الشيخَ ، نحنُ أحَقُّ أنْ نذهبَ إليه ، قيل له : نجيء به ، قال : لا ، أكره أن يجيء إلىَّ أو أذهبَ إليه ، فيتصنع لى وأتصنع له ، فَنَهْلكَ .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه ، وذكر بِشْرَ بن الحارث ، فقال : لقد كان فيه أُنْسٌ. وقال : ما كلمته قط ، نقلته من « الورع » .

وقد قال البيهقىُّ فى « مناقب الإمام أحمد » : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو بكر ابن أبى دارم الحافظ بالكوفة ، حدثنى أبو محمد المقرئ البغدادى ، حدثنا جعفر بن محمد صاحب بشر ، قال : اعْتَلَّ بِشْرُ بن الحارث فعادته آمنةُ الرملية من الرملة فإنها لَعِنْدَهُ إذْ دخلَ أحمدُ بن حنبل يَعُودُهُ فقال : مَنْ هذه ؟ فقال : هذه آمنة الرملية بلغها علَّتى فجاءت من الرملة تعودنى ، فقال : فَسَلْها تدعو لنا ، فقالت : اللهم إنَّ بِشْرَ بن الحارث وأحمد بن حنبل يَستجيرانكَ من النار فأَجِرْهُمَا ، قال أحمد : فانصرفت ، فلما كان فى الليل طرحت إلىَّ رقعة فيها مكتوب : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، قد فعلنا ولَدَيْنَا مَزِيد .

وقال المروذى : قال أبو عبد اللّه : جاءتنى امرأةٌ من هؤلاء المتعبدات فأخبرتنى عن امرأة أخرى أنها عمدت إلى شيئها ففوتته على نفسها ، واقتصرتْ على قرصين وتَركتِ الدنيا وهى تسألك أنْ تدعوَ لها ، قال : فقلتُ لها : قولى لصاحبةِ القرصين تدعو لى .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : ما أعدلُ بفضلِ الفقرِ شيئاً ؛ أتدرى إذا سألكَ أهلك حاجةً لا تقدرُ عليها أىّ شىءٍ لكَ من الأجر ؟ ما قَلَّ من الدنيا كان أقلّ للحساب .

وقال المروذى : سمعتُ أحمد يقول : إنَّ لكل شىء كرماً وكرمُ القلب الرضا عن اللّه تعالى . سمعتُ أبا عبد اللّه يقول لشجاع بن مخلد : يا أبا الفضل إنما هو طعامٌ دونَ طعامٍ ، ولباسٌ دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وقال أيضاً عن أحمد : ما أعدلُ بالصبر على الفقر شيئاً ، كم بين مَنْ يُعْطَى من الدنيا

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٣٠ (٢٤٦٤) .

لِيُفْتَنَ إلى آخرَ تُرْوَى عنه . قال : وذكرتُ لأبى عبد اللّه عن بعض المفتين شيئاً فى الورع ، فَشَدَّدَ على السائل وهو عبد الوهَّاب ، فقال أبو عبد اللّه : ليس ينبغى للرجلِ أنْ يحملَ الناسَ على ما يفعلُ أو كلاماً ذا معناه إذا كان يفتى ، وقال : سمعت أبا عبد اللّه وذكر قوماً من المترفين فقال : الدُّنُوُّ منهم فتنةٌ والجلوسُ معهم فتنة .

وروى الترمذى وقال : غريب ، عن عائشة قالت : قال رسولُ اللّه ﷺ : « إنْ أردتِ اللحوق بى فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب ، وإياكِ ومجالسةَ الأغنياء ولا تستخلقى ثوباً حتى ترقعيه » (١) .

وعن مكحول قال : قلت للحسن : إنى أريدُ الخروجَ إلى مكة ، قال : إيَّاك أنْ تصحبَ رجلاً يكرم عليك فيفسد الذى بينه وبينك .

وقال أحمد : إنما قوى بِشْرٌ ، لأنه كان وحده ولم يَكُنْ له عيال ، ليس مَنْ كان معيلاً كمن كان وحده ، لو كان إلىَّ ما باليتُ ما أكلت .

وقال أيضاً : لو ترك الناسُ التزويجَ ، مَنْ كان يدفعُ العدو ؟ لَبُكَاءُ الصبىِّ بين يدى أبيه مُتَسَخِّطاً يطلبُ منه خبزاً أفضلُ من كذا وكذا يراه اللّه بين يديه ، أين يلحق المتعبد الأعزب .

وقال فى « الفنون » : حديث مسند أنَّ النبىَّ ﷺ قال : « إذا طلب إلى ذى العيلة عَيْلَته شهوة فأين يلحقه القائم الصائم » .

وذكر أبو عبد اللّه من المحدثين على بن المدينى وغيره كم تمتعوا من الدنيا : إنى لأعجبُ من هؤلاء المُحَدثين حِرْصَهم على الدنيا . قال المروذى : وذكرتُ رجلاً من المحدثين فقال : أنا أشرتُ به ألا يكتب عنه ، وإنما أنكرت عليه حبه الدنيا ، وقد سبق معنى هذا فى فصول العلم وأن العالم ليس كغيره لأنه يقتدى به .

قال المروذى : وسمعت أبا عبد اللّه يقول : قد تفكرت فى هذه الآية : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ١٣١] .

ثم قال : تفكرت فىَّ وفيهم وأشار نحو العسكر وقال : ﴿ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ قال : رِزْقُ يوم بيومٍ خيرٌ ، قال : ولا يهتم لرزق غد . وقال أبو داود : كانتْ مجالسةُ أحمد بن حنبل مجالسةَ الآخرة لا يذكرُ شيئاً من أمرِ الدنيا ، وما رأيته ذكرَ الدنيا قط .

وقال أحمد لرجل : لو صَحَّحتَ ما خِفْتَ أحداً ! وسبق بنحو أربعة كراريس فى فضائله .

وسئل عن الحُبِّ فى اللّه فقال : هو ألا يحبه لطمع دنيا ، وفيه أخبار كثيرة :

---

(١) الترمذى فى اللباس ، ب ما جاء فى ترقيع الثوب (١٧٨٠) .

منها ما روى مسلم من حديث أبى هريرة : « يقول اللّه يوم القيامة : أين المُتَحابُّونَ بجلالى ؟ اليومَ أُظِلُّهم فى ظلى يومَ لا ظِلَّ إلا ظلى » (١) .

وللترمذى وقال : حسن صحيح : عن معاذ مرفوعاً : « قال اللّه : المتحابون بجلالى لهم منابرُ من نور يَغْبطهم النبيُّون والشهداء » (٢) .

ولأبى داود هذا المعنى من حديث عمر وفيه : « قومٌ تَحَابُّوا بروحِ اللّه على غيرِ أرحامٍ بينهم ولا أموالٍ يتعاطونها » (٣) .

ولمالك وأحمد من حديث معاذ : « إنَّ اللّه يقولُ : وَجَبَتْ جَنَّتى للمتحابين فىَّ والمتجالسين فىَّ » (٤) .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : أن المَلَكَ قال لِلَّذى زار أخاه : إنى رسولُ اللّه إليك ،إنَّ اللّه قد أحَبَّكَ كما أحببته فيه (٥) .

ولأحمد من حديث أبى أمامة : « ما أحَبَّ عبدٌ عبداً إلا أكرمه ربُّه » (٦) .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود وغيره أن رجلاً قال : يا رسولَ اللّه ، الرجلُ يحب القومَ ولَمَّا يَلْحَق بهم ؟ قال: « المرء مع من أحب » (٧) .

وذكر أحمد الدنيا ، فقال : قَليلُها يجزئ وكثيرها لا يجزئ ، وقال : لو أن الدنيا تكون فى مقدار لقمة ثم أخذها امرؤٌ مسلم ، فوضعها فى فَمِ أخيهِ المسلم لما كان مُسْرفاً .

فصل

قال محمد بن عمران أبو جعفر الخياط : سمعت أحمد بن حنبل يقول : بلغنى عن أخى منصور بن عمران أنه كان يقول : اللهم قد أحاطت بنا الشدائدُ وأنتَ ذُخْرٌ لها ، فلا تعذبنا وأنتَ قادر على العفو ، سيدى قد أرَيْتَنَا قُدْرَتكَ ولم تزل قادراً ، فأرِنَا عفوكَ فلم تزل عَفُواً .

قال أبو جعفر أحمد بن الحسين المنادى : فلو كانَ عند أبى عبد اللّه فى منصور أدنى شىءٍ

---

(١) مسلم فى البر والصلة ، ب فى فضل الحب فى الله (٢٥٦٦/ ٣٧) .
(٢) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الحب فى الله (٢٣٩٠) .
(٣) أبو داود فى البيوع ، ب فى الرهن (٣٥٢٧) .
(٤) أحمد فى مسنده ٥/ ٢٢٩ ، ومالك فى موطئه ، ب فى الشعر ، ما جاء فى المتحابين فى الله ٢/ ٩٥٣ ، ٩٥٤ (١٦) .
(٥) مسلم فى البر والصلة ، ب فى فضل الحب فى الله (٢٥٦٧/ ٣٨) .
(٦) أحمد ٥/ ٢٥٩ .
(٧) البخارى فى الأدب ، ب علامة الحب فى الله (٦١٦٩) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب المرء مع من أحب (٢٦٤٠/ ١٦٥) .

من التُّهمةِ فى البدعة لما حكى عنه شيئاً ولا خَصَّهُ بالأُخوةِ .

قال ابن المنادى : إنَّ أبا عبد اللّه النواء قال : قلتُ لبشر بن الحارث : إن منصور بن عمار يقول فى بعض كلامه : يا عبيد ما يفنى ، كيف رأيتم ذُلَّ مَملَكة الدنيا ؟ أَلَمْ تَصحبوها بالائتمان لها ، فأذاقتكم الغش من مكروهها ؟ قال : فَوَجَمَ لذلك بِشْرٌ وسكت ، فأردتُ أنْ أزيده فقال : قد أشغلت علىَّ قلبى .

فصل فى تعبد الجهل وتقشف الرياء وتزهد الشهرة وعبودية العلم والحكمة

قال محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو الحسين بن سمعون وسأله البرقانى : أيها الشيخُ ، تدعو الناسَ إلى الزهدِ فى الدنيا والترك لها وتلبسُ أحسنَ الثياب وتأكلُ أطيبَ الطعام ، فكيف هذا ؟ قال : كلُّ ما يصلحك مع اللّه فافعله ، إذا صلح حالك مع اللّه تلبس لين الثياب وتأكل طيب الطعام ، فلا يضرك .

وقال ابن الجوزى : قد تقع لكثيرٍ من الناس يَقَظَةٌ عند سماعِ المواعظ وأخبار الزُّهَّاد والصالحين ، فيقومون على أقدامِ العزائم على الزهد وانتظار الموتِ بما يصلح لهم ، ففيهم مَنْ يقتدى بجاهلٍ من المتزهدين ، أو يعمل على ما فى كتاب بعض الزهاد فيرى فيه التَّقَلُّلَ من الطعام بالتدريج وترك الشهوات وأشياء قد وضعها من قلة علمه بالشريعة والحكمة ، فيديم الصومَ والسهر والتقلل ، ويدوم على المآكل الردية ، فتجفَ المعدةُ وتضيقُ ، وتقوى السوداء ، وتَنْصَبُّ الأخلاطُ إلى الكبد والطحال وربما تصاعدت إلى الدماغ فيبس أو فَسَدَ الطبع ، وربما تغير ذهنه فاستوحش من الخَلْقِ وحشةً يعتقدها أُنْساً بالحق ، فأعرض عن مجالسة العلماء ظنا منه أنه قد بلغَ المقصود ، فهذه الأشياء تعكر أولاً المطلوب من التعبد فينقطع الإنسان بضعف القوة عنه ، ويبقى معالجاً للأمراض فيشتغل الفكر فيها عما هو أهم .

ولقد تَخَبَّطَ فى هذا الأمر خَلْقٌ كثير من الصالحين صَحَّتْ مقاصدهم وجهلوا الجادة ، فمشوا فى غيرها ، وفى هؤلاء الذين حملوا على أنفسهم مَنْ عاجَلَه المرضُ والموت ، وفيهم مَنْ رجع القهقرى ، ومنهم مَنْ تَخَبَّطَ فلا مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء . فأما العلماء الفهماء ، فإنهم على قانون الحكمة وسبيل العلم ؛ فإياك أن تعرض عن الجادة السليمة ، واحذر من الاقتداء بِجُهَّالِ المتصوفة والمتزهدين الذين تركوا الدنيا على زعمهم ، فالصادقُ منهم فى تركها عاملٌ بواقعه لا بالعلم ، والمبهرج منهم خسرَ الدنيا والآخرة .

ومِنْ جَهْلِ هؤلاء أنهم لو رأوا عالماً يَرْفُقُ بنفسه عابوه ، ولو رأوا عليه قميص كتان قال زاهدهم : هذا ما يعملُ بعلمه ؟ ولو رأوه راكباً فرساً قالوا : هذا جبار ، فإياك أنْ تحملكَ وثبةُ